

علست أننى إن تركت القلعة فى يدى وأصابنى الموت أخذها أولاد أخى بعد ولدى، وما آثرت ذلك، وآثرت أن أمنعهم من ذلك بعده وسلتها إليك ، ، فرق له شرف الدين عند ذلك وقال : دلو أعلم هذا ما قتلته ، .

وأخذ شرف الدين منها أموالا وذخائر عظيمة ، ورحل عنها بعد ما سلبها للشيخ واستحلفه أنه متى (٢٣ ب) طلبها وسير إليه من يكون فيها سلبها إليه ، وتوجه [شرف الدين] إلى قلعة حسن فنزل عليها أياما ولم يقدر منها على شئ ، وكان أهلها ينزلون فيقاتلون فى الوطا ، فرحل عنها ومضى إلى ناحية جهة مطاطة ونازلها ، وهى بلد ما بين قابس وقفصة ، وإلى قابس أقرب مقدار نصف نهار فنزل عليها وقتلها أياما .

* * *

ودخلت سنة سبع وسبعين وخمس مائة :

ففى نقل المستضىء - قدس الله روحه - من الدار التى كان مدفونا فيها إلى الدار العتيقة لبعض الجهات غربى دجلة من بغداد عند رأس الجسر مجاورة للجامع نحر الدولة بن المطلب ، وكانت العادة أن يدفن الخلفاء بمقابر قريش بالمحلة المعروفة بالرصافة ، إلا المستضىء - رضوان الله عليه - فإنه ذكر عنه أنه أوصى بذلك ، وقيل إن الإمام الناصر لدين الله - صلوات الله عليه - اختار هذه الحال لأجل خريفة أمير المؤمنين ثلثا تبعد عليها زيارته ولا تجدد من بدله بعد الطريق فاختر ذلك لقربه ، وأقام للموضع فراشين وبوابين فلا يقدر أحد على الدخول لزيارته إلا بإذن ، وأوقف عليه وقوفا كثيرة وجعل لثربته الراتب من الشموع والوظائف من المخزن الشريف ، وعمل على ضريحه صندوقاً من الساج وغرم عليه مبلغاً من المال .

ولما أراد الخليفة — أيد الله دولته — حمل الإمام المستضيء بأمر الله من الدار التي كان مدفوناً بها إلى التبة المذكورة في الجانب الغربي من بغداد أمر بأن تهبأ السفينة المعروفة بالزربزب وقد غرم عليها مالا جزيلا ، [وهي] عجيبة الصنعة يجدف بها ملاحون عدة ، جماعة منهم يجدفون في الهوى^(١) من مؤخرها ، وجماعة يجدفون في الماء (١٢٤) من صدرها ، فبرز الأمر النبوي بحضور أرباب الدولة وأهل العلم والصوفية والقراء وأشرف الناس على طبقاتهم لتحويل الإمام السعيد المستضيء بأمر الله ، فحضر الناس واكثرى كل واحد منهم سفينة على قدر وسعه ، وأخذوا من الشموع مالا يحصى حصرا ولا عدة فأشعل في تلك الليلة ، فكان الشط بأسره من كلا جانبيه لا يرى فيه موضع خال إلا وفيه سفينة أو سمارية يزحم بعضها بعضا ، فكانت الدجلة تنقد من الجانبين كشعلة نار من كثرة الشموع التي أشعلت في تلك الليلة ، وكان الناس قياما في أماكنهم ، والقراء يقرءون القرآن ، وأهل بغداد من الجانبين لا يحصى عدتهم إلا الله تعالى ، بحيث لم يتخلف عن الخروج في تلك الليلة إلا من هو عاجز لم يقدر على الخروج .

وكان أستاذ الدار أبو الفضل بن الصاحب هو المباشر لهذه الحال والمرتب لها ، فنقل رضوان الله عليه ودفن باقى ليلته ، وأحضرت الربعات فكان الناس يقرءون ويختمون ، والعلماء يعظون — واحد بعد واحد — إلى أن مضت ثلاثة أيام بلياليهن وهم في التربة المذكورة ، فلما كان اليوم الثالث — آخره نهاره — حضر عماد الدين صندل الخادم الخاص وتقدم إلى الناس بالانكفاء ، فنفرقوا .

(١) في هامش المخطوطة : « أى فيه مجاديف الهوى في مؤخرة السفينة » .

وفي هذه السنة تقدم الناصر لدين الله بنقض السفينة المذكورة المعروفة بالزبزب وقال : دلا حاجة أن تكون هذه بالدجلة بإزاء التاج الشريف لترقب من يموت يُحمل بها ، وإنى كلما رأيتهما تكدرت على الحياة ، وإذا مات ما يُستعذر أن يعمل مثلها ، فأمر بنقضها فنقضت ، وكان قد غرم عليها أموالاً عظيمة وكانت من أحسن السفن المركوبة ، وكان إذا ورد إلى بغداد سلطان (٢٤) وتغلب على دار الخلافة وأراد الحضور إلى الخدمة فلا يركب إلى التاج الشريف إلا في هذه السفينة .

* * *

ذكر ما جرى وتجدد للملك الناصر صلاح الدين من الأحوال بمصر والشام

ودخلت سنة سبع وسبعين [وخسمائة] والسلطان مقيم بالقاهرة مواظب^(١) على ترتيب أحوال الديار المصرية ، ناشر للعدل في الرعية ، باذل لمعروفه وما يسديه من مكارم أخلاقه لقاصديه ، إذ وصلته الأخبار بما تجدد في الشام من موت الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود .

* * *

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

قد سبق قولنا من قبل في ذكر الملك الصالح اسمعيل بن محمود بن زنكي وما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه من سوء تدبير مدبريه ، فحين وصل السلطان من مصر إلى الشام لما وصله من احتلال الثغور وأراد إصلاحه وأن يضمّه

(١) في الأصل : « مواظبا » .

إليه فصدّه عن ذلك بعض^(١) ممالك أبيه ، وظهر منه التّأبّي فأخذت^(٢) بلاده بلجاجهم ، واقتنع بحلب ولم يزل يُحَكِّم المسؤولين عليه إلى أن قضى نحبه ، فأسرّع ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى حلب فاستولى على خزائنه ، وعلم أنه لا يستقر له بها أمر ، فرغّب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في تعويضها له بحلب ، فتسلّمها وسلّم سنجار إليه .

ولما سمع السلطان بمصر بوفاة الملك الصالح وبلغه ما جرى بعد وفاته ندم على البعد عن الشام ، وشرع في التوجه من مصر إلى الشام ، فكتب إلى والدى الملك الظفر — رضوان (١٢٥) الله عليه — كتابا ، وكنا حينئذ بحماة وما يجرى معها من الأعمال والولايات ، يأمره بالتأهب^(٣) والنهوض بعسكره ويعرفه أنه سيدركه إن شاء الله تعالى ، وكان نائبه بدمشق عمى عز الدين فرخشاه قد نهض إلى الكرك في مقابلة الإبرنس^(٤) بها ، وكان يحدث نفسه أن يقصد « تيا » في البرية ، وأعدّ لذلك الأزواد والروايا ، فعرف السلطان اشتغاله بتلك الجهة .

وكتب أيضا كتابا إلى الأمير معين الدين عبد الرحمن بن أنر صاحب الراوندان^(٥) يأمره أن يكون في مساعدة والدى وتحت رأيه ومعاضدته ، وكان ذلك في العشر الآخر من شعبان من السنة . مصدره : « صدرت هذه

(١) في الاصل : « بعد » .

(٢) عبارة : « فأخذت بلاده بلجاجهم » هي نفس عبارة العماد التي أوردها أبو شامة

في الروضتين ٢٢/٢ س ٤ .

(٣) عبارة « بالتأهب والنهوض بعسكره » هي نفس عبارة ابن واصل في مفرج الكروب

١١٠/٢ س ٨ .

(٤) هو دینو دی شانیون Reginald de Chatillon المعروف في المراجع

العربية باسم « اوناط » ، راجع

Grousset: Histoire de Croisades, t. II, Runciman: op. cit.

(٥) عرفها مراراً الاطلاع ٥٩٨/٢ بأنها نلعة حصينة وكورة مشجرة من نواحي حلب.

المسكوبة إلى حضرة الأمير ونعم الله عندنا وارقة الظلال ، وافرة النوال ، سائفة الزلال ، سائغة الأذيال ، فائضة المنال ، رابضة في حصى الاستقامة والاعتدال ، مستزادة منا بالشكر على المزيد ، مستدامة في تأييدها على التأيد ، والحمد لله على ذلك حمدا يؤمن شمل نظامه من التبديد ، ويؤذن لمنهج نهج حدثه بالتحديد ، وعندنا من الارتياح إلى بهجته ، واجتلاء أنوار غرته ، ما يشهد به ضميره الكريم ، والله سبحانه هو الشهيد العليم ، والاجتماع — بحمد الله — قد قرب بعينه ، وقصر متناول أمده ومديده ، والتداني لكل ماجته يد التناي كاف ، والشفاء المقدر لكل مختل ومعتل مسدد وورد الاعتداد به بحمد الله صاف ، ورداء الالتفاف بالاحتفال لمودته ضاف ، وقد عرف ما تجدد من وفاة صاحب حلب ، وهي ولاتينا (٢٥ب) التي لا تثنى عنها عنان الطلب ، فإنها في تقليدنا من أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما تركناها للملك الصالح بعد التصرف فيها وحصول حصونها ومعاقلها في أيدينا إلا رعاية لحقوق أبيه ، ورغبة فيه ، ولا مانع الآن عنها من يمين معقودة ، ولا عدة معهودة ، وقد وفيما للمتوفى بعده ، وأرجأنا اليوم معه الأمر إلى غده ، والآن فقد سفرلنا وجه الحق وبان ، ودنا لنا مصعبه وأصحاب ودان ، وولدنا تقي الدين هناك بالقرب وعساكرنا جارية على حكمه ، معذوقة عزائمنا بماضى عزمه ، فلتسكن أيديكم متساعدة متعاضة ، ونياتكم وعزما تكم على التعاون متعاقدة ، والقلوب واحدة ، والعساكر في استخلاص الحق مترادة متوافدة ، والأمير أولى من توفر برأيه الصائب وعزمه الثاقب على هذا الأمر المهم ، وجرى من مألوف نفقته ومعهود مناصحته على الرسم ، ونحن واصلون بعون الله تعالى على الأثر بالنصر والظفر ، والعديد الأوفر ، والعتاد الأكثر ، وقادمون في همة ، وعساكر جمة ، ومضاء عزمه ، لا عائق لما بلغت وجوه اللهازم ، ولا مانع بحمد الله يُجلى عن وردها ظلماء الصوارم ، ومعين الدين أو في معين ، وأندى يمين ، وأروى وأعذب معين ، وأقرب قرين ، وأشجع ليث عرين ، فلينهض بنفسه وعسكره ، ويوثق في هذا المقام حسن أثره ، ويعمل عمل المرء لنفسه ، وينتصف ليومه من أمسه .

ذكر مكاتبة سلطانية الى مجد الدين ابن صاحب استاذ دار الخلافة
العظيمة يصف فيها بلائه في الاسلام وجهاده ونصيحته للدولة العباسية ،
ويذكر فيها غدر الموصلية ومن تقدمهم .

ذكرنا ذلك مختصرا ، نسختها :

(١٢٦) « أدام الله إقبال سامى مجلس الصاحب وأندى سعاداته ،
وأيد بالنجح إراداته ، وحلّى بالمكارم والمحامد سجايه وعاداته ، وأنجز
بنصر أوليائه وكبت عداته ، ولا زالت أمداد الزيادة له والسعادة تامية ،
وآماد عزّه فى سماء مجده مترامية ، وأعين مناوئيه فى مناره عن الطموح
إلى ذرى فخاره متخاشية متعامية ، وديم الكرم فى فضاء فضائله من سماء سماحه
هامرة هامية ؛ ما سفر وجهه وتوجّه سفر ، وقدّر أمر ، وقد أمر بعد ما
أصدر مملوك الدار العزيزة — ثبت الله قواعد مجدها ، وشدّ بعري النصر
معاقدها — مطالعاته التى أعرب فيها عن صاحب الموصل وأنه قد طمع
فى حلب وطمح إليها ، ومدّ عين التعدي بالاحتواء عليها ، وأنه نكث الأيمان
المبرمة ونقضها ، وترك المراقبة التى فرضها الله بأن رفضها ، فإن حلب
وأعمالها داخلة فى ولايتنا دخولاً يشهد به المثال ، وينطق بحقه المنشور
العال^(١) ، الموقع له من مقر العظمة والجلال ، بلغه أنه بلغ الفرات وقطعه ،
قاطعاً لما أمر الله به أن يوصل من العهد وجسر على عبور جسره بل خسر ،
حيث جاوز حدّ التعدي بتعدّي الحدّ ، ووصل إلى حلب بتمتريا حلف
الخلاف ، متنكباً طريق الإنصاف ، وقد أخرجته قلة عسكره إلى الاستكثار
بمن فى البلد من الأجناد والأشباه من رعية البلاد ، هذا وذوو التمييز وأهل
الرأى والمشورة من أمراء العسكر الحلبى لم يرضوا ولم يرفعوا به راسا ،
وما ازدادوا به إلاّ استيحاشاً لا استثناسا ، ومن حلف لهم حيث أكرهوه
حلف على المقام إن طابت نفسه بخدمته أو مفارقتة إلينا والانحياز عن

(١) أى « العالى » .

جته ، ومن هؤلاء الأمراء من هو أحامهم (٢٦ ب) حقيقة واحقهم حية ، وآباهم نفسا ، وأنفسهم آية من فارقة متاركا ، وشاققه مباكتا ، وذهب مغاضبا ، وتحيّز إلى جانبنا وأعرض عنه جانبنا ، ووصل إلى نوابنا بالشام متوسلا إلينا لنفسه بآرائه وآرابه ، ورسولا عن وراءه من رفقائه وأصحابه ، وشاع^(١) أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان ، وهي أحد ما في عملنا ، وتصرفنا له ولولايته شامل ، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم في شغلنا وبغريهم ، ويذل لهم الرغبات ويضريهم ، وقد راسل الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف ، والعلم بالمعتاد منها كاف^(٢) ، وما تهيأ للذكور الوصول إلى حلب إلا بسبب غيبة ابن أخينا في أقصى بلاد الفرنج في أول برية الحجاز ، وقد نهض إليهم بالعسكر معترضاً لهم في الحجاز ، فإن طاغيتهم^(٣) جمع خيله ورجله ، واستعمل^(٤) في الاستكثار من الزاد والآلات والعدد منته وجهله ، وحدثه نفسه الحبيثة بقصد نيماء وهي دهليز المدينة — على ساكنها السلام — واغتم كون المدينة^(٥) مخصبة في هذا العام^(٦) ففقد ابن أخينا أثره ، وأخذ عليه مورده ومصدره ، وعارض بالعسكر المنصور عدوه المخذول وعسكره ، وذلك بعد أن أمضى عزمه ، وأنقضى ركابه وجهده ، ومنع الكافر المخذول رصد قصده ، ولم يعلم بوفاة ولد نور الدين رحمه الله إلا بعد عودته من نهضته ، وقد حسن بحمد الله أثر عزمته ، واستنفذ بركة وجهه في غزوته ؛ ولم يشكّ هو ولا غيره أن صاحب

(١) من هنا يبدأ نص الكتاب الوارد في ابن واصل : مفرج الكروب ١١٠/٢ - ١١٢ مع تبديل ضئيل في بعض الكلمات لا يخرج موضوع الكتاب عن مضمونه في كليهما .
(٢) وردت أجزاء من هذه الكتابة في أبي شامة : الروضتين ، ٢٣/٢ ولكن على غير هذا الترتيب .

(٣) يقصد بذلك رينودي شانيون .

(٤) عبارة « واستعمل ... وجهله » في السطر التالي غير واردة في ابن واصل :

مفرج الكروب ١١٠/٢ .

(٥) « البرية » في مفرج الكروب ١١٠/٢ .

(٦) من هنا حتى كلمة « القدر » ص ٦٤ س ٢ غير واردة في مفرج الكروب ١١٠/٢

الموصل لا يتعرض للبلاد لأمرين : أحدهما أنه لا يتصرف إلا على الأوامر الشريفة المطاعة التي تأمر بالوفاء وتنهى عن الغدر ، والآخر أنه لا ينقض يمينا ليس في نقضها وجه من (١٢٧) الغدر ، والعجب أننا نحامي عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم مشغولين بهمة ، والمذكور (١) ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها يد ظله ، وكما بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال ، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال (٢) ، وبين بعيد من دار الخلافة المعظمة يفترض الطاعة ، ويستفرغ في مراضيا الاستطاعة. ولا يحل ولا يعقد إلا بمراسدتها ، ولا يقوم ولا يعقد ، إلا بمراسدتها ولا يصدر ولا يورد إلا عن مصادرها ومواردها ، وبين آخر يدعى أنه أقرب جيرانها ولا يمت بل لا يموت إلا بعصيانها ، ويخطب لأهل الخلاف على الخلافة ويجهر بأسمائها ، وينشر في ولايته راية أعدائها ، وكل يعمل على شاكلة أسلافه ، فهو يمرى بيد المراء — كمعادتهم العادية — أخلاف أحلافه ، ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ، ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ، هذا مع ما نعد في الملة الخيفية والدولة الهادية العباسية مما لا يعد مثله. أولا لأبي مسلم لأنه أقدم ثم صام (٣) ، وأمال ثم ألام ، ووالى ثم ولى ، وجلّ وجلّا ثم أخلّ وأخلى ، ولا [بعد] آخراً لطفرليك فإنه نصر ونصب ، ثم حجر وحجب ، وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما (٤) في نصر الدولة ، وقطع من كان ينازع الخلافة رداءها ، وإساغته الغصة التي ذخر الله لا ساغته في سبقه بنا إياها ،

(١) يقصد بذلك صاحب الموصل ، راجع الروضتين ٢٣/٢ .

(٢) من هنا حتى كلمة « الاسلام » هنا ص ٦٤ من ١٣ غير وارد في صورتها في مفرج

الكروب ١١١/٢ .

(٣) «خامر» في الروضتين ، وقد صححه على هذه الصورة مفرج الكروب ١١١/٢ ، وقد

وردت في نسخة من كتاب أوردته أبو شامة ، شرحه ٢٢/٢ — ٢٤ على الصورة التالية :

« والخادم — والحمد لله — يعدد سوابقه في الاسلام والدولة العباسية لا بعدها أولية في

مسلم لأنه والى ثم وأرى ، ولا طفرليك لأنه بصر ثم حجر » .

(٤) أي على أبي مسلم الخراساني وطفرليك .

وتطهر المنابر من رجس الأدعياء^(١) ، وإطلاع أنوار السمات كاشفة ظلم تلك
الآساء ، وإنارة صباح الهدى بعد امتداد رواق الضلالة المدلهمة الظلباء ، ولم نفعل
ما فعلناه لأجل الدنيا ، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسن متوقع في
العقبى ، غير أن التحدث (٢٧ ب) بنعمة الله واجب ، والتبجح بالخدمة
الشريفة والافتخار بالتوفيق لها على السجية غالب . ولاغنى عن بروز
الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ، ولا يتجاوز حقه ، فلا ولاية
له من خليفة يقترب به بهاء المضاء ، ولا وراثته في أرض الله ، فإن الأرض^(٢)
لله يورثها من يشاء ، فإن أطاع وأتاب ، ورجع عن الخطأ وعاد الصواب ،
وترك الحق لأهله ، وأخذ الوفاء في سلوك سبيله وإلا فما قصدنا إلا أن نقاتله
وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون ، والمشار إليه متصامم
ونحن سامعون ، وكفى بالحق نصرة أنه على الرشد الكامل ، وبالمبطل
خذلاناً أنه طالب للباطل .

فصل منه :

« هذا وما بنا — بحمد الله — قصور عن أن نصده عن قصده ،
ونزديه ثوب العجز برده ؛ ونكيل له بصاعه ، ونعثره في عثر إسرائه ،
ونحسم داهه وإن أعضل مرضاً ، ونزويه بسهام من عند الله تعالى لا تقبل
غيره غرضاً ، ولا شك أن التحارب يحيره ، والإدبار يصحبه فيما يدبره ،
وقد طالع الديوان العزيز بطله مستشفياً ، ولشرح قصته مستوفياً ، ولعذره
في جميع الأحوال ملبياً ، ولا غناء عن نظره السامى ليكون المراد متولياً ،
ولراية الحق معلماً ، لازال لذخائر الحمد مقتنياً ، واقواعد المجد متنبياً ، ورأيه
أسمى إن شاء الله تعالى . »

(١) يقصد بذلك إزالة الخلافة الفاطمية .

(٢) إشارة الى قوله تعالى في القرآن الكريم « قال موسى لقومه استغفينا بالله
واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » سورة الاعراف

ذكر مسير سيف الاسلام ظهر الدين طغتكين (١) الى اليمن

وذلك لما كان يجرى بين الأمير [عز الدين] عثمان بن الزنجارى (٢) والى عدن وبين الأمير حطان [بن منقذ الكنانى] والى زيد من الفتن والأمور التى تكون معها عاقبتها (٣) إلى فساد الدول (١٢٨) ، فأحضر السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين ، وقرر معه أيمضى إلى اليمن وينظر فى أمور بلادها ويتولاها ، ويولى ويعزل ويستبدل ، فسار إلى اليمن ، فحين علم به حطان خاف منه وأوى إلى بعض الحصون فتحصن منه واستكن منه ، ومازال يمينه ويرغبه فى الولاية بين يديه ، وحطان يسأل الإذن بالمضى إلى الشام فأذن له ، فجمع حطان جميع أمواله وذخائره من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وعدد وخيول عراب ، وأمر غلبانه أن تاتى بالجمال ، فحملها جميع الأموال وظن أنه ينجو بذلك ، وركب ليسير بماله إلى الشام فأمر برده إليه ليودعه ، فلما دخل إليه اعتقله وسير وراءه ماله وخزائنه وأثقاله من ردها إليه فاستولى عليها ، ثم أنفذه إلى بعض المعاقل فحبسه ثم قتله (٤) .

وفىما ذكر للسلطان من خبر ماله وذخيره مايفنى عن تفاصيل ، جملته : نيف وسبعون غلافا من غلف الزرد وكانت مملوءة بالذهب الأحمر ، وقوم المأخوذ بألف ألف دينار .

(١) كان وفاته سنة ٥٩٣ هـ ، راجع ذيل الروضتين ، ص ١١ .

(٢) غير منقطة فى الأصل ، وفى نسخة ابن الأثير : الكامل ١١/١٩٢ « الزنجبلى » .

(٣) تفسير ذلك عند ابن خلدون : تاريخ ٥/٢٩٦ أنه لما وقعت الفتنة بين حطان وعثمان

خشى صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته .

(٤) يختلف هذا الخبر اختلافا كبيرا عماورد فى ابن الأثير : الكامل ١١/١٩٢ اذ المذكور

فيه أن صلاح الدين انقلد الى اليمن جماعة من أمرائه ، منهم صارم الدين قتلغ بيه ، ولم يرد لطغتكين اشارة ، كما أن ابن الأثير يشير الى أن امارة زبيد عادت الى حطان بعد موت قتلغ بيه .

وأما الأمير عثمان الزنجارى فإنه لما سمع بسيف الإسلام [ظهر الدين طغتكين] تجهز إلى الشام وفارق اليمن .

* * *

ذكر البطسة الفرنجية الواقعة الى بحر دمياط والظفر بها ، وذلك بعد غدر من الفرنج في اواخر السنة المذكورة .

كان السلطان قد عمدهدنة مع الفرنج فنكثوا قبل انقضائها تعرضا للفتنة ، وجرى عند ذلك من الاتفاقات الحسنة أن بطسة عظيمة من المراكب الفرنجية مقفلة من بلد لهم يقال له «بوليه» تحتوى على ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم (٢٨ب) وأبطالهم وأتباعهم وهم على قصد زيارة القدس ، فآلقهم الريح إلى نهر دمياط ، ففرق منهم شطرم وسلم الباقون ، فأسروا جميعا ، فحصل في الأمر منهم ألف وستمئة وسبعون نفسا^(١) ، فذل لتلك الواقعة جانب الكفر ، واتفق ذلك أمام اهتمام السلطان بالمسير إلى الشام لما جرى فيه من الاختلال بموت صاحب حلب وغدر صاحب الموصل ، وتجهز بعساكره المنصورة لقصدته ، ووافق ذلك دخول سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة] وسندكر الحادثة فيها إن شاء الله تعالى .

* * *

واقعة (٢) شرف الدين قراقوش المظفرى في هذه السنة

ولما دخلت سنة سبع وسبعين رحل شرف الدين عن جهة مطاحلة ومضى

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٣١٠/١٢ ، وقد ذكر ابوشامة في الروضتين ٢٧/٢ ان عددهم كان يبلغ ١٦٧٦ .

(٢) اكتفى ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠/١٢ بالاشارة الى حركة قراقوش المظفرى بافريقية فذكرها في سطر ونصف فقط وكذلك أبو شامة : الروضتين ٢٧/٢ س ٥ - ٧ ، ولكن ابن الاثير لم يشر مطلقا لهذه الحملة .

إلى إفريقية ونزل على أربس^(١) وهى مدينة عظيمة وقد اجتمع معه جماعة من العرب من مرداس ومن الرجالة، وأقام عليها أياما وعمل عليها منجنيقا فلم يقدر عليها، ورحل عنها إلى سويريه ولم ينزل عليها بل أغار على بلادها، وترددت إغاراته على أربس وبلادها وما حولها أشهراً، وجعل يرحل من موضع إلى موضع لأنها كانت أيام الربيع إلى أن انقضى الربيع وجاء الصيف، فرحل وأوغل في بلاد إفريقية وانتهب منها ما قدر عليه، وغنم أصحابه الغنيمة العظيمة، وعاد إلى قفصة بمكاتبة كانت من بعض شيوخها إليه، وواعده ليلة بعينها لأن الموحدون كانوا قد أخذوها من بنى الربد في سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وأهلها كثير وفيها من أصحاب ابن عبد المؤمن جماعة، فوصل إليها فى الليلة التى واعده (١٢٩) الشيخ على شرقتها فما تها له ذلك بل عمل السلايم التى أعدها للشرقة، وطلع أصحابه فشعر بهم الموحدون وجاءوا إليهم فأنزلوهم أشد إنزال، وكان الشيخ على السور فأخذه معه وقبض عليه وقيده وترك فى رقبته^(٢) غلا ورحل عن قفصة، فلما أبعد عنها أطلقه وقال له : « عملت بك ما عملت خشية عليك حتى لا يقال عنك إنك عاملت على المدينة فتقتل ، وأنا بعد — إن شاء الله — أرجوك فى وقت غير هذا ، وعاهده ومضى .

وطالت مدة إقامة شرف الدين يتردد بأفريقية، وانقطع خبره الصحيح عن ناصر الدين ابراهيم، ووصلته أخبار سارة^(٣) بأن قراقوش هلك فسارع فى النزول على قلعة أم العز وحاصرها، وكانت خالية من الرجال وإنما كان فيها النسوان ومهمم الحسام البقش — أحد أصحاب شرف الدين وثقائه — ومعه

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل « قبضته » ثم كتب الناسخ فوقها دون أن يشطبها « رقبته » .

(٣) فى الأصل « شاده » . وواقع الحال يقتضى ما اثبتناه بالمتن .

نفر قليل ، فلم يزل حتى أخذ القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من ذخائر شرف الدين وأمواله ، وأخرج النسوان منها ، ووكّل عليهن وعلى الحسام البقش ، وتركهم في موضع .

واتفق أن شرف الدين عند رحيله عن أم لامة توجه إلى بلد القيروان ونزل على موضع يقال له « السكة » ، في أواخر سنة سبع ، ونصب عليها منجنيقا وقائله ، وكان معه من العرب سليم الشريد في قريب من ألف فارس ، وقد وصله حميد بن جارية في هذه السنة في مائتي فارس ، وترك قبيلته لما استضعفه واستهانوه ، فلم يشعروا في أول النهار إلا والحرب قد قامت بين حميد والشريد ، وكان الشريد أكثر من حميد ف وقعت حجة قراقوش لحميد فنفذ عسكرا^(١) عوناً لحميد ، فلما شعرت مشايخ الشريد بذلك ارتحلت عنه وتركته وحميد ، فما بعدوا إلا وعسكر الموحدين فيهم أحد (٢٩ ب) أولاد عبد المؤمن يقال له أبو موسى في نحو من عشرة ألف فارس وعشرة ألف راجل ، وما عند شرف الدين قراقوش خبر منهم حتى أطل العسكر من ناحية الجبل ونزل الوطاء فندم على مفارقة الشريد ، ونفذ يستصرخهم فعادوا إليه خيالة من غير أهل وتركوا أهلهم (و) مضوا لحالهم ووصلوا إليه وقالوا « يا شرف الدين يا سلطان ، نحن لك على ما تحب ، إن طردتنا نزحنا وإن استدنيتنا^(٢) حضرنا » ، وشال العسكر أثقاله وبقى المنجنيق : ولز وصول العسكر والناس يقولون : « ياخوند أطلنا العسكر » وهو يقول : « والله ما أروح إلا بالمنجنيق » ولم يزل حتى رفعه على الجبال ، وضرب لمقدم عسكر الموحدين خيمة واحدة ، ووقف العسكر بأسره ، فستل بعد ذلك عن الخيمة ما كان سبب ضربها فقالوا : « نزل السيد يلبس فيها لامة حربه ،

(١) بعدها في الاصل « الى الشريد » .

(٢) في الاصل « استند بننا » .

ونفذ شرف الدين الشهاب ابن المقدم وجعله مقدماً على الشاليشية ، وأراد أن يبصر كيف حرب الموحدين ، وطمعوا فيهم ، فرموا منهم جماعة وأتوا بخيولهم إلى شرف الدين ، فزاد الطمع ، ونفذ العرب الشريد وذباب وأصحاب حميد ، فصار الجميع قريباً من ألف وخمس مائة فارس ، ووقع الطراد بينهم وطمعوا في الموحدين ونفذوا إلى شرف الدين أن يقدم إليهم .

وكان شرف الدين قد نفذ الثقل وأوصله إلى رجائل العرب ، وعاد معه ثلاثمائة فارس ، فأطل على القتال وحل حملة واحدة بمن معه ومن كان تقدمه ، فأنكسر الموحدون وراحت عليهم الكسرة ولازال الطراد فيهم والأخذ إلى مدينة القيروان ، فدخلها السيد أبو موسى مقدم العسكر ، وعاد شرف الدين ظافراً وغنم عسكره وأسروا جماعة من المقدمين ، فكان من أسر ابن مثنى صاحب ديوان إفريقية والقاضي ابن (١٣٠) ماسكاً قاضي إفريقية وجماعة كبيرة ، منهم من فدى نفسه بخمسة ألف دينار وستة ألف دينار إلى ألف ، وأما ابن المثنى فإنه كان قد أخذه بعض العرب يسمى نعيم ، فنفذ إليه شرف الدين أخذه وأعطاه ألفي دينار وتركه في خيمة ، فترددت الرسائل بينهما في الفداء ، فقطع على نفسه خمسة وستين ألف دينار عيناً وبأربعين ألف متاعاً من عمل سوسة والمهدية ، وما بات شرف الدين في تلك الليلة التي كانت الكسرة في يومها حتى أخذ السمكة ، التي كان يحاصرها لاستسلام أهلها ، وقطع عليه عشرين ألف دينار فرحل عنها وقطع القيروان ، ونزل بينها وبين المهديّة على بلد يسمى لودر ، فلم يزل عليها إلى أن استوفى ما كان قطعه على ابن مثنى وأطلقه من هناك .

ومن أعجب الأشياء أن بعض الأتراك أخذ قماشاً في الكسرة فكان لكتاب السيد أبي موسى ، فوجد فيها أوراقاً وكتباً من الأطراف ، ووجد فيه كتاباً وقد وصل من قابس إلى السيد يذكر فيه أن إبراهيم نزل على أم العز وأخذها وأنزل نساء قراقوش منها لما بعد عهده بخبره ، فدخل على شرف

الدين من ذلك أمر عظيم ، وما كان بد له من العود إلى بلاد طرابلس لأجل ما سمعه عن إبراهيم ، فعاد مظفراً قد كسر الموحدين وغنم هو وأصحابه الغنيمة العظيمة ، واتفق في طريقه بزغب الذين كانوا يكونون مع إبراهيم ، فتراسل وإياهم وحضر إليه أمراؤهم ، وقد تقدمت أسماؤهم فتحالف معهم ، وكان حميد فارقة عندما نزل بالجهة وسار إلى قبيلته وكانوا بنواحي هراة ، وكانت رعب على موضع يقال له رديف ، (وهو) موضع مليح من عمل قابس واقع فيما بينها وبين جلي مطاطه وقلعة حسن ، فلما اتفق ما بين شرف الدين وبين زغب فرج عنهم (٣٠ ب) لأن ذباب عندها عذر عظيم ومكر وخداع ، وزغب عندها وفاء ومحبة في الأتراك ، لأن ذباباً أعداؤهم وهم خلق كثير يكون في خمسة ألف فارس ، وزغب مائز يد على ألف ومائتي فارس ، إلا أن زغب عندهم شجاعة وفروسية وإن كان في ذباب كذلك إلا أن زغب إذا كانت مع الغز لا يقابلها ، أحد ، وسار شرف الدين وهم معه إلى بلاد طرابلس فوصلها ، وسمع به إبراهيم وتحقق رجوعه فقامت قيامته . ولم يكن شرف الدين عاجزاً ولا متوانياً في أمره ، إذ سارع إلى الجبل : جبل نفوسه وطلع إلى إبراهيم من عقبة يقال لها مكردمين ، وسار إلى جادوا فما استطاع إبراهيم أن يقاتله ، فترك البلاد ونزل إلى قلعته « تنزلت » وتحصن بها ، ونزل عليه شرف الدين وهي قلعة لا تقاتل لأنها نائية في وسط وادٍ عظيم لا يقدر أحد على الطلوع إليها ولا القتال ، إلا أن بعض الجبال التي حولها تشرف عليها ، فجاء شرف الدين إلى ذلك الجبل ونصب عليه منجنيقاً ورمى به فما وصل إليها ، فطول سهمه ورمى به فلم يصل إليها بل زاد على الأول ، فتحتل في سهم طويل وضرب به فوق حجره في وسط القلعة ، فما قدر إبراهيم أن يقيم وطلب الأمان ، وخرج حاجبه جمال الدين وطلب أماناً لإبراهيم ، فشرط عليه أن يتوجه إلى طرابلس ينزل فيها في مركب إلى الديار المصرية ، فتوقف شرف الدين عليه في الأمان وقال : « ما آخذه إلا أسيراً ، هذا الغادر الماكر » ، فلم يزل الأتراك يسألون فيه إلى أن أعطاه

يده وحلف له برأس الملك المظفر أنه لا يضربه ، فخرج في ليلته ولم يجتمع به ، وسيره مع ستين فارساً إلى مدينة طرابلس ، فوصلها ودخلها .

وكان صاحبها ابن مطروح عبد المجيد^(١) مطيعاً لابن عبد المؤمن (١٣١) صاحب المغرب ، فلما اجتمع به إبراهيم حسن له التوجه إلى ابن عبد المؤمن وسفّره في مركب إلى تونس وكان فيها والٍ يقال له عبد الواحد فتلقاه ملقّى حسناً وأعطاه مالا كثيراً وجهزه وسيره إلى مراکش ، وكان صاحبها ابن عبد المؤمن يوسف إذ ذاك ، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم وأضافه إلى ما كان في يده ، ولما أحس حميد بن جارية مقدّم ذباب بأن قراقوش قد حالف زغب قامت قيامته وأخذ في عداوته ، وصارت ذباب تقتل من لقيت من الأجناد وتغار على جماعهم في مراعيها وتأخذ قوافلهم ، فقصي ذلك أن شرف الدين أظهر عداوة حميد ونفذ إليه : « إن أردت صداقتي فتردّ ما أخذته قبيلتك » فقال حميد : « لا قدرة لى على ذلك » ، فقال له شرف الدين : « انزعزل عنهم بمن أطاعك » ، فأبى .

وعلمت ذباب بإظهار العداوة لشرف الدين فصارت كلها طوعاً له ، وكانت ذباب إذا رأت حميداً قد عادى ملكاً أطاعته ، وإذا صادق ملكاً بغضته .

وعلمت الشريد بعداوة شرف الدين وذباب فانحازت إليه وحالفته مع زغب وكذلك عوف حالفته .

وكانت سليم كلها - التي بطرابلس - إذا جاء لذباب عدو انحازت إليه ، لأن ذباب أبداً كثيرة الأذى لسليم لكثرتها ، وسأذكر واقعته في موضعها من سنة ثمان [وسبعين وخمسمائة] إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) في الأصل « عبد المحيط » والتصويب من أبى شامة : الروضتين ٣٨/٢ .

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة

فيها برز الأمر الشريف بأن لا يستخدم في الديوان كتاب النصارى ولا أحد من أهل الذمة وكانوا يُستخدمون في الديوان وفي المخزن لاستيفاء الأموال ورفع الحساب من قبل ، فلما ولي الإمام الناصر لدين الله - صلوات الله عليه - رأى أن في ذلك (٣١ ب) إذلالاً للمسلمين ، فوقع إلى أستاذ الدار أمين صاحب يقول له : « إن الله تعالى نفي أن يكون للكافر على المسلم سبيل ، وفي استخدام أهل الكتاب إهانة للمسلمين ، فلا يستخدم أحد في شيء من الأعمال ورُتب عوضهم من يصلح من المسلمين » ، فكتب إليه أستاذ الدار : « إن هذه الحال تحتاج إلى التأمل في حال من يُرتب ، وفي الصبر على هؤلاء للكتاب إلى أن يؤخذ ما عندهم من أصول الأموال بحيث لا يعلمون ؛ ولعلمهم إن علموا أسقطوا كثيراً من حقوق الديوان » ، فوقع إليه [الناصر لدين الله] : « ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بيت المال ولا يبقى أحد من الكفار في شيء من الأعمال » ، فأخرج جميع من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض ، وشفع ابن البخارى نائب الوزارة بابن الأشقر كاتب ديوان العرض ليبقى على حاله ، وذكر أنه ثقة عفيف ، فوقع الخليفة : « هذا ابن الأشقر مات ما الذى يصنع بعده في ديوان العرض » ، فتقدم بإخراجه من الديوان بعد أن عرض^(١) عليه الإسلام فأبى ، وكان له ولد فدخل إلى ابن البخارى

(١) دأبت نسخة هذه المخطوطة على كتابة « أعرض » بمعنى « عرض » وستصحح

فيما يلى دون الإشارة الى خطأ النسخ .

وهو جالس في الديوان في ملأ من الناس وقال : « يا مولانا ، أنا رجل قد رغبت في دين الإسلام لأجل خدمة أمير المؤمنين ، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن كل دين غير الإسلام باطل ، ؛ فأشار إليه ابن البخارى بالجلوس فجلس ، ثم كتب إلى الخليفة بصورة الحال ، فوقع [الخليفة] إليه :

« إنما منعنا من استخدام الكفار لأجل كفرهم ، فن أسلم يعاد إلى خدمته ؛ وهذا يخلع عليه ويستخدم في ديوان العرض عوضاً عن أبيه ، ويقال لكل من صرفنا من خدمتنا إن أحب الدخول في (١٣٢) الإسلام فيعاد إلى خدمته ويُشرف ، ومن لم يفعل لا يمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام . وانحسرت المادة في ذلك ، وكانت هذه معدودة من مكارم أخلاق أمير المؤمنين الناصر لدين الله لأنه لم يسبق إليها ولم يعتمد عليها سواه .

• • •

وفيها تقدم الأمر بالقبض على كمال الدين أبي مفضل بن الوزير الفرج بن رئيس الرؤساء ، وحمل إلى دار الخفاش في التاج العتيق ، وطلبت منه أموال جمعة فلم يعترف بشيء ، وأخذ ما كان في داره من المال فكان مقداره عشرين ألف دينار ؛ وأخذت من داره خزائنة من الكتب النفيسة فبيعت بمبالغ ، وتولى بيعها أبو السعادات الوكيل ابن الناقد ، وتكررت المطالبة لابن رئيس الرؤساء بالمال وهو يدافع عن ذلك ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب يزرى عليه ويبعادي بيته قديماً وحديثاً ، وكان يخاف منه لأنه كان رجلاً جباراً عارفاً بأحوال الملك وتديره ، وكان قد نشأ في دار الخلافة حاكماً ، وكان أبوه الوزير مع شيخوخته يتدبر برأيه مع صغر سنه ، فتقدم أستاذ الدار إلى عبد الملك النائب — وكان قد عرف بالظلم والقساوة لأنه منذ نشأ في

باب النبوي يخدم بين يدي الحجاب — أن يتولى أمره وعذابه فتركه في مطمورة ، وكان يضربه من رأسها بطوايق القرميد حتى هلك ، فعرف الخليفة بموته فقيل له إنه كان به ذرب وكثر عليه فأت ، فتقدم بأن يرمى في دجلة ليلا ، فرمى ولم يعلم به إلى مدة .

وكان موته أعظم الأمور على أهل بيته لأنه كان يخاف منه ، وتطرق الأذى إلى بيت رئيس الرؤساء ودخل^(١) عليهم الأذى ، وتبرجت نساؤهم بعد الحذر . وتزوجت إحدى بنات كمال الدين برجل يعرف بابن ملك ، كان جنديا^(٢) وتصفو ، بعد أن كانت مسماة على ابن قطب الدين قايمار (٣٢٢) وفسخ أبوها النكاح وقال : « ليس هذا بكفء » ، ثم تناهت الحال بهذا البيت وأهله إلى أن صاروا من أدون الناس حالا ؛ وكان أهل بغداد إذا شاهدوا واحداً من نساؤهم أو صبيانهم يقولون . . . سبحان مزيل النعم ، ، ويذكرون قدم هذا البيت .

وكان أستاذ الدار يتبع جميع من كان من أنساب هذا البيت وأقاربه والمتعلقين به ما عدا عز الدين أبا منصور بن رئيس الرؤساء ، فإنه كان يقربه ويحضره عنده ويكلفه ذكر أهله ، ويوقع في نفس الخليفة أنهم يبخضونه من زمن .

وفيهما تقدم^(٣) أمير المؤمنين الناصر لدين الله — صلى الله عليه — بختان ولديه : ولي العهد أبي نصر محمد والأمير أبي جعفر على أعز الله أنصارهما ، فأمر بحضور أرباب الدولة وجماعة من الأمراء الخواص ومن

(١) في الأصل « ودخلت » .

(٢) في الأصل « جندى » .

(٣) أمامها في الهامش عبارة « ختان ولدى الخليفة الناصر لدين الله » .

جرت عادته حضور دار الخلافة، وأمر بحضور المغنين والمطربين وأصحاب الملاحى ، وتقدم بعمل خوان غرم عليه مال جزيل لا يحصره عد ولا وصف لكثيرته وما صنع عليه ، وبقي الناس على ما هم عليه من الفرح والسرور والطرب سبعة أيام بلياليهن ، فلما كان في اليوم السابع أمر بالخلع والتشريفات، فأول من خلع عليه مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب ، خلع عليه جبة أطلس بقطى ومقيار مسمط بذهب عراقي وأعطى سيفاً مذهباً ، واعتقد الناس أنها خلعة الوزارة، وجعل الناس يتربقون ركوبه فركب ودخل إلى الدار العزيزة على جارى عادته . ثم خلع على جماعة الأمراء وأرباب الدولة ، وحضر للتهنئة جماعة من الشعراء والفضلاء ومنهم الأجل أمين الدولة جمال الكتاب أبو الفتح محمد بن عبد الله الكاتب سبط التعاويذى ، فقال يمدحه ويهنته بختان ولديه : أبى نصر وأبى جعفر :

(١٣٣) ختان جرى باليمن والنجح طائرته

موارده محمد — ودة ومصادره

قضت بتباشير السرور صدوره

ونيل المنى أعجازه وأواخره

بطالع سعد لاتغيب نجومه

وزائن حظ لاتغيب بشائره

فيالك من يوم تكامل حسنه

فرقت حواشيه وراقت مناظره

حوى شرفاً يبقى على الدهر ذكره

إذا فنيت أدواره وأعاصره

ينبه على الأيام فضلاً وسودداً

قلو فاخرته أغمتها مفاخره

أفيض على الدنيا به ثوب بهجة
فأمت عليها ضافيات حبايره
ففي كل قلب غبطة تستفزه
ونشوة شكر من مرور تخامره
لقد سفك الإسلام فيه وحكمه
دماً جل أن يلقي ثرى الأرض قاطره
ولولا أمير المؤمنين وإنه
بإيثاره في طاعة الله هادره
لخرت على الترب السماء وزلزلت
رواسبه إجلالا وغيضت زواجره
أيقضى على وتر سليل خلفه
كتائبه^(١) من حوله وعساكره
وتحنى عليه في يد العليج مديّة
وخرصاته من دونها وبواتره ؟
وما فارقت يعض السيوف غموده
ولاحلت أسد العرين صوامره
ولكنه الإسلام ينقاد طائعا
له كل جبار تطاع أوامره
ليهن أبا العباس الله نعمة
تراوحه موصولة وتباكره
سيلو وشيكا منهما ليث غابة
تمزق أشلاء الأعداء أظافره

(١) يمكن قراءتها أيضا « كنانته » لعدم التنقيط .

(٣٣ب) وغيث سماح يملؤ الأرض ودقه
وتروى صدى الهيم الظماء مواطره
همو أمراء المؤمنين عليهمو
إذ أربع سرب الملك ثثنى خناصره
وهم عدد الإسلام إن عنّ حادث
كفوه ، وهم أعضاؤه وذخائره
بهايل من آل النبي تأشبت
عناصرهم في خندف وعناصره
نجارهمو يوم الفخار نجاره
وأحسابهم أحسابه ومآثره
يطيعهم الدهر المطاع قضاؤه
وترهم أحداؤه ودوائره
لقد سار فينا سيرة عمرية الـ
سياسة ، فالتأيد فيها يسايره
إمامٌ لتقوى الله والعدل كله
وللبذل والمعروف في الناس سايره
كريم المحيا والشامل يلتقى
بأبوابه بادی الثناء وحاضره
أضاءت لنا بشراً امرأة وجهه
وشفت عن الخلق الكريم سرائره
وأوسع جاني الذنب عفواً وإن غدت
تضيق عليه في السماح معاذره
هو الناصر الدين المنيف بسيفه
وآرائه ، والله بالغيب ناصره

نشرت على أبناء دهرى بمدحه
وعظم قدرى أنى اليوم شاعره
أصوغ له حلى المديح ولم تكن
لتحسن إلا فى علاه جواهره
فلا زالت الأقدار [تجرى] ^(١) بأمره
ويدفع عن حوبائه ما يحاذره
ولا برحت فى الخافقين أواهلا
بدعونه أعـواده ومنابره

* * *

وفىها تقدم الخليفة إلى مجاهد الدين ^(٢) خالص الخادم أن ينظر فى نهر
ملك ^(٣) (١٣٤) ويرتب فيه من شاء من النواب والعمال والكتاب ، وجميع
ما يحصل من معاملات نهر الملك يعرض على يده ومن جانبه ، وفرض
له عن نظره برسم الشنكية مالاً ، وتقدم له بسيف ركاب أسوة بأرباب
الدولة ، وسأل أن يركب بسيف مشهورة فى ركابه إذا ركب فى البلد ،
فأذن له فى ذلك .

وسبب الإنعام فى حقه خدمته لأمير المؤمنين فى زمن إمارته ، وكان
قد ربّاه ، وكان بحر درة أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - تحبه
وتحترمه وتشتهى أن تراه بهذه الحال لسابق خدمته لها ، وطلب الإذن النبوى
فى استخدام وزير لتدبير أمره فأذن له فى ذلك ، فاستوزر رجلاً يعرف

(١) أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم الوزن والمعنى .

(٢) هو مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصرى (+ ٥٨٤) .

(٣) نهر ملك يحمل من الفرات إلى دجلة وأوله عند قرية الفلوجة ومعه فى دجله ،

وكان يعرف قديماً باسم ملخا malcha ، راجع لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية

بالأصيل ابن الخواف أعجبياً معروفاً بخدمة الأمراء ، وكان المذكور وزيراً الأمير إيلاجك ، وكان ولده عارض الجيش ، نخلع عليه خالص جبة أطلس ومقياراً بعراقي ، واستأذن له في الدخول إلى الدار العزيزة وأن يكون له موضع بباب الحجر الشريفة يجلس فيه لقضاء مهماته ، فأذن له في ذلك ، فكان أستاذ الدار ابن الصاحب يتأذى من هذه الأحوال ، وكان هذا الخادم قد كبر أمره تخاف منه على منصبه وأن تفضي الحال إلى أن يرتب ابن الأصيل أستاذ الدار ، فسار أستاذ الدار يسارع في توقف مهامه وتبطيل كثير من أوامره ، وحسن للخليفة ذلك ، فبرز الأمر أن يرجع أستاذ الدار في جميع أموره ، فتأكدت العداوة بين أستاذ الدار ابن الصاحب وبين خالص [الخادم] ، وآل الأمر في امتناع الناس من الدخول على خالص ، وكان من أراد الدخول إليه لحاجة لم يقدم على ذلك إلا بإذن من أستاذ الدار .

وكان جماعة من الناس من أهل (٣٤ ب) بغداد ما لهم شغل إلا نقل الحديث من مجلس خالص إلى أستاذ الدار ، وكان خالص قد اشترى جماعة من الجوارى المطربات نحواً من عشرين جارية وكان يبالغ بأثمانهن ، وكانت الجارية منهن تساوى ألف دينار ، وكان يحب السماع ولا يشرب " ، وكان يأمر بإحضار جماعة من الأمراء والماليك ، فنفذ أستاذ الدار بمنعه من ذلك وقال : « مثل هذه الحال لا تتحمل أن تكون في الدار العزيزة » ، فتألم خالص من ذلك ورفع أمره إلى الخليفة ، فاستصوب [الخليفة] رأى أستاذ الدار وقال : « نعم ما فعل ، وإذا أراد هذه الحال يعمر على شاطئ دجلة داراً ولا يفعل ذلك بدار الخلافة » ، ومنع [خالص] من ذلك الوقت وعمر داراً على شاطئ الدجلة .

* * *

وفىا استخدم أستاذ الدار أبا المظفر هبة الله ابن يونس وجعله نائبه وحكمه ، وصارت الأمور تجري معظمها على يديه ، وكان أبو المذكور — يونس — وكيلا بباب الحجر الشريفة من جانب أستاذ الدار ؛ وكان رجلا دينيا ، وكان مخول الذكر فلم يزل على ذلك حتى حصل مالا وثروة : حدوداً من عشرين ألف دينار ، وكان من أمر ولده أبي المظفر ما سذكروه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

* * *

وفىا أعطى سعود الخادم ثخنكية دجيل وجانيه من تكريت إلى بغداد ، وكان الناظر بدجيل زعيم الدين بن الجلال ، وكان قبصر بن بك بين يدى سعود محكماً فى ولايته لا يعمل أمراً ولا شيئاً إلا برأيه ، وكبر أمر سعود وتقدم عند الخليفة وكان لا يزال يركب مع الخليفة إذا ركب ، وخطب بالإمارة ، وأعطى إقطاعات كبيرة فى بلاد واسط مع ثخنكية دجيل ، فحصل من ذلك أموالاً جوية ، لأن دجيلاً^(١) بلد كبير الدخول وليس فى بلاد العراق أكثر دخلامنه ولا (١٢٥) أكثر من ثماره ، ولا أنزه من ضياعه ، ولا أرق من هواه ، ولا تزال المياه تطرّد فى أنهاره ، وهو الموصوف بكثرة بلاده ، وحتى ولو خرب دجيل لزال من العراق معظم مغانيه .

وفىا رتب عماد الدين صندل [الخادم] ناظراً فى نهر عيسى^(٢) ورسم له النظر فى ثخنكيته ، وتقدم إليه بالعبور إلى الجانب الغربى ، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار لأن صندلاً^(٣) كان فى زمن المستضىء أستاذ

(١) أمامها فى الأصل عبارة « دجيل » وقد ذكر مراد الاطلاع ١٦/٢ هـ « أنه اسم لنهر مخرجه من أعلى بغداد ويسقى كورة واسعة وبلاداً كثيرة ، ثم تصب فضلتها فى دجلة » .

(٢) راجع مناقب بغداد لابن الجوزى ، ص ١٨ .

(٣) كان عزله عن الاستادارية سنة ٥٧١ هـ وذلك لأمْرِغ المستضىء عنه .

الدار ، لأن الخليفة كان قد التفت إليه وكبر^(١) عنده لأنه كان رجلاً عاقلاً
تقياً ، وكان الناس يعتقدون فيه ويعظمونه ، وكان ذا معروف حسن ،
فلم يزل أستاذ الدار بن الصاحب حتى حسن في نفس الخليفة الإنعام في حقه
وحسن له أن رتبه في نهر عيسى ناظر شحنة ؛ ونفذ له بغلة شهباء وحصاناً
أحمر وجة وعمامة وسيفاً ، وخرج إلى نهر عيسى ، ورتب عليه مشرفاً رجلاً
يعرف بزين الدين أحمد بن جعفر الذي كان أبا صاحب ديوان إمام
المستنجد بالله رضوان الله عليه .

* * *

وفيهامات الشراي المعروف بالتحفة، ورتب موضعه نجم الدولة نجاح،
وشرف تشريفاً جميلاً وأعطى إقطاعاً كبيراً، وتقدم إليه أن يركب موضعاً
جرت به عادة أمثاله من الشراب دارية ، وكثر إنعام الخليفة عليه والالتفات
إليه ، وظهر نصحه، وهو إلى الآن على عادته .

وفيهامرتب أبو الحسن بن الكرخي حاجباً في الديوان من حجاب
المناطق ، وكان الخليفة يقربه ويحب محاضرتة ؛ ورتب أبو الشيخ أبو جعفر
الكرخي حاجب المنبر الشريف بجامع القصر وخلع عليه ، وعادة حاجب
المنبر بجامع القصر أن يكون متأهباً ليوم الجمعة^(٢) بإزاء المنبر ، يلبس ثياب
السواد ويشد وسطه بمنطقة ، متقلداً بسيف حليته فضة ، ويكون بين يدي
(٣٥) المنبر ، فكل من أتى متظلباً يأخذ منه قصته ويستلم حاله، ويكون
بين يديه جماعة المستخدمين المقيمين بباب العامة ينفذون أوامره ويستخدمهم
كيف [شاه] في هذا اليوم فحسب، فإذا تكملت الرقاع معه أخذها في منديلها،
فإذا قضيت الصلاة خرج من الجامع وجاء إلى المقصورة التي جرت عادة

(١) في الاصل « كثر » .

(٢) أمامها في الاصل « عادة حيا بينفداد » .

الوزير والنائب أن يصل بها ، فإذا خرج الوزير مشى في خدمته وسلم الرقاع إليه وشرح له أحوال أربابها مفصلة ، فما يحتاج فيه إلى المراجعة للعرض الأشرف راجع فيه ، وما لا يحتاج تقدم فيه الوزير أو النائب .

* * *

وكان في هذه السنة ابن التجارى جلال الدين النائب ، فكثرت عنده ابن الكرخى يخلو به فكان ابن الكرخى ، يشرح له ما كان يجرى له مع الخليفة في خلوته ، فاستأذن الخليفة أن يرتب والد المذكور — الذى هو حاجب المنبر — على المظالم ، على أن من كان له ظلامة أو حاجة أو قصة وأراد عرضها يكون حديثه مع هذا الشيخ أبى جعفر ، وكبر بذلك ، وحصل جملة كبيرة ، وكان هذا الشيخ أبو جعفر من جملة حواشى الوزير ابن رئيس الرؤساء وعن ربه تحت ظله ونعمته .

كان حاجبه حيث كان وزيراً .

وفيهما^(١) ورد القاضى ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى إلى مدينة السلام بغداد رسولا من جانب الملك الناصر صلاح الدين ، وأخرج إليه بهاء الدين أبو الفتح بن الدارنج — وكان حينئذ حاجب الحجاب — ومعه جماعة من الحجاب والخدم وجماعة من الأمراء والأجناد إلى لقائه ، وأدخل إلى بغداد من باب السلطان بموكب جميل ، فكان عن يمينه جمال الدولة إقبال الخادم ، وعن يساره صبيح الخاص الخادم ، وجماعة الحجاب بين يديه ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب شديد بغض لابن العطار فى أيامه ويحمل له مساوى كثيرة وكان يقول للخليفة (١٣٦) إن ابن العطار بطمع صلاح الدين فى الملك ، وذلك لما كان يرى منه من التبجيل والإعظام لأصحاب صلاح الدين ، وكان الخليفة يتناقل عن قوله ويتفاضى عن جوابه

(١) أمامها فى الأصل « ورد القاضى ضياء الدين الشهرزورى » وهو كاتب صلاح الدين .

لما يعلم بما بينه وبين ابن العطار ، ثم إن ابن الصاحب نفذ إلى نائب الوزارة ابن البخارى سرّاً أن لا يقوم لابن الشهرزورى — إذا دخل عليه — حق القيام ، فلما حضر ابن الشهرزورى الديوان العزيز قام قائماً وخطب خطبة بليغة ، وكان ذلك بمحضر من جماعة من الأمراء وأرباب الدولة ، فاستحسن الجماعة بلاغته ، ثم جلس بعد ما قام له ابن البخارى على ركبته وأذن مجلسه ، وعرض ما كان معه من التحف والهدايا ، ثم نهض بعد الخدمة ومضى إلى الدار التى أعدت له بخربة المهراس .

وكان ابن الشهرزورى قد ألف مدة مقامه في بغداد [أن] يحضر جماعة من المطربين والأغاني ويتظاهر بذلك ، وكان معه شيخ متهتك يعرف بالبدر ، وكان ابن العطار في أيامه يحترمه ويغضى هذه الحال مكانته عنده ، فلما ورد في هذه المرة قصده ابن الصاحب وكشف عليه أحواله وقبح أفعاله وصار يوهن قواعده ويقدم إليه على لسان ابن البخارى أن لا يرجع بكتب إلى الديوان العزيز إلا العبد وإلى أستاذ الدار الخادم ، ثم أذن له بالانصراف بجواب رسالته .

وفىها تقدّم الخليفة بإحضار جماعة من الندماء والجلساء إليه كان كثير الميل إليهم ، وكان في جماعتهم أبو الحسن بن الكرخى ، فكان كثير الجلوس عنده بحيث لا يفارقه ، وكان المذكور يقترح في أستاذ الدار ابن الصاحب ، وكان الخليفة ينكر عليه فقال له : يا أمير المؤمنين أكتب له بولاية العهد هذا إن رضى ، والله ما يرضى لأنه اليوم هو الخليفة فكيف يرضى أن يكون ولى عهد؟ ستبصر كيف تكون (٣٦ب) الأحوال معه ، فنقل ذلك جميعه إلى أستاذ الدار فأحضر ابن الكرخى عنده وخلع عليه وقربه وماعرفه شيئاً مما بلغه عنه ، وقال له : لا تنقطع عنا ، أنت عندنا مثل الولد .

ثم خاطب الخليفة في حقه ، وطلب له من الدار التى في الوراقين فتقدم له بها ، وكتب له ملصكاً ، وأشهد الوكيل عليه بها ، وكثر ابن الكرخى في الدولة

وكثر أيضاً أبو العز في الدولة وصار بمنزلة الشرابي، وأنعم الخليفة أيضاً عليه فكان ملازماً للخدمة الشريفة وكذلك محمد بن يحيى الفرائش، وكان هارباً في أيام المسترضى بأمر الله رضوان الله عليه، فقربه الناصر لدين الله — صلوات الله عليه — وأنعم عليه.

ثم برز الأمر الشريف إلى المخزن أن يفرض لأبي العز في كل شهر ثلاثون ديناراً وما يحتاج إليه من خبز ولحم وحوائج، وكذلك فرض لابن الداية، وأعطى داراً حسنة بالريحانيين، وذلك أنه كان يخدم الخليفة لما كان صغيراً في الكتاب، وأمر له بتشريف جميل، وكان هذا المذكور يعرف بابن العوادة.

* * *

وفيها أمر الخليفة — ثبت الله دعوته — بإحضار الريبابن رزين رضيعه فشرفه تشريفاً جميلاً وأعطاه داراً جميلة في درب الصاغة، وتقدم إليه بأن يدخل الدار العزيزة من غير إذن.

* * *

وفيها أيضاً برز الأمر أن ينعم على محمد بن يحيى الفرائش من المخزن المعمور في كل شهر بثلاثين^(١) ديناراً وجميع ما يحتاج إليه، وأن يعطى الدار التي عند عقد الجديد المجاورة لحمام الوراقين. وكان محمد بن يحيى الفرائش حسن الخلقة محبوباً إلى الناس، فكان إذا ركب يتفرج^(٢) الناس على حسنه وخلقه، وكان الخليفة لا يصبر عنه ساعة واحدة، وكان من أخص الناس عنده وأحظاهم منزلة.

(١) في الأصل « ثلاثين » .

(٢) في الأصل « يتفرجون » .

وفي هذه السنة اجتمع هؤلاء القوم المذكورون عند الخليفة وحسنوا (١٣٧) له أن يكون قتيّ وقالوا له: «إن هاهنا رجلاً حسناً يقال له عبد الجبار، خلفه خلق كثير، وهؤلاء يحتاج إليهم في وقت، . . وكان عبد الجبار هذا مشاهراً في بستان يعرف بالبصرية وهي ملك لابنه جهر، فأمر بإحضاره فحضر معه ولده على الملقب بشمس الدين، فلما أحضر المذكور شاهده وقرر معه ذلك، ثم اتفق الحال أن يكون الاجتماع في بستان يعرف بالركة وهي في مقابلة التاج الشريف، وكان مشاهراً هذا البستان المذكور رجلاً يعرف بالعقاب يوسف، نسيباً للشيخ عبد الجبار، فحضر مع الجماعة عندما لبس الخليفة سراويل الفتوة^(١) فعرفه من هناك، وأنعم على الشيخ عبد الجبار بخمسة مائة دينار، وخلع عليه وعلى ولده على .

ثم إن الخليفة — ثبت الله دعوته — كثر حديثه في هذا^(٢) وحسن الأمر عنده ولم يبق أحدهم كان قريباً منه إلا وليس منه سراويل، وتقدم إلى أبي علي بن الدوامي أن يكون نقيب الجماعة، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة وأحوالها المرضية لأنها من الخصال المحمودة الشريفة والضرائب المشهورة العفيفة، وكان ابن الدوامي فاضلاً حسن الصوت مليح الإيراد، وكان يذكر من المعاني المستحسنة التي تدلّ على مكارم الأخلاق وطيب الأعراق أشياء كثيرة .

* * *

(١) راجع النهج السديد لمفضل بن أبي الفضائل ٨٤ - ٨٥ .

(٢) أي عن الفتوة، هذا وقد ذكر ابن السامى المتوفى سنة ٦٧٤ م في كتابه : مختصر أخبار الخلفاء، ص ١٠٩ أن الخليفة كان مغربى برمى البنديق ولبس سراويل الفتوة ولعب الطيور والمناسيب، وأفرط في ذلك أفراطاً كثيراً حتى كان يبت إلى الأقاليم أنه لا يدعى أحد من الرماة إلا له، ولا يلبس أحد سراويل إلا له .

وفيه أكثر ابن الكرخي من مدح بيت رئيس الرؤساء وذكر للخليفة أن
علم الدين بن رئيس الوزراء بن أخى عضد الدين الوزير زوجين قد أحذمتها
خمس مائة ألف دينار، الواحدة ابنة عمه دار الذهب، والأخرى الزينية بنت
شرف الدين الوزير الزيني، وهو يتمنى أن يمضى إلى عنده ويعمل لنادوة
فقال له: « أفعل ذلك ».

وكان مراد ابن الكرخي أن يعطف قلب الخليفة إلى بيت رئيس
الرؤساء ويبعده عن أستاذ الدار، فعمل علم الدين له ظاهر دعوة وغرم
(٣٧ ب) عليها مالا كثيراً واشترى ثياباً كثيرة بنحو من خمس^(١)
مائة دينار وحملها إلى الشراي، وحمل إلى جميع من كان يدخل إلى الخليفة
أشياء من الثياب وغيرها ومن الهدايا السنية، وخلع على جميع من عنده في تلك
الليلة، وكان ذلك في الدار التي في درب الزينية التي عند دار الوكيل
ضياء الدين أبي السعادات بن الناقد عند عقد المصطنع.

وكان جميع ما جرى في الدعوة في تلك السلسلة ينقل إلى أستاذ الدار ساعة
فساعة ولا يقدر أحد من الحاضرين أن يكتم ذلك عنه، وكانوا يخافون من
أستاذ الدار أكثر من الخليفة صلوات الله عليه، فلما خرجوا من عند علم الدين
أبي طاهر بن رئيس الرؤساء قال له ابن الكرخي: « طيب قلبك ولتكن غداً
على أهبة، فإن الخليفة يريد أن يجعل أستاذ الدار وزيراً ويجعلك أنت أستاذ
الدار، فلا تجعل نفسك شغلاً، فمضى علم الدين إلى بعض أهله وحصل منه
سيف ركاب وجناقات وآلة تصلح لأستاذية الدار، وأقام بعض غلمانه سلاح
دار، وأصبح يرتقب من يأتي إليه من دار الخلافة، فلما نقل ذلك إلى أستاذ
الدار من أيلته نفذ من صبيحة تلك الليلة وأنكر على علم الدين ابن رئيس
الرؤساء على لسان محمود الشراي وكان يتحجب لأستاذ الدار — وقال له:
« والله لولا أن أهل بغداد يعتقدون أنني أقصد بيت رئيس الرؤساء [ولولا

(١) في الاصل « خمسين مائة ».

أني [إذا أمرتُ فيك بأمرٍ نسبتُ فيه إلى القصد لقد كنتُ أتقدم بصلبك، ومتى رجعتُ إلى مثلها أمرتُ بصلبك] . فمن بعد ذالم يحسر أحد أن يذكر بيت رئيس الرؤساء .

وأما ابن الكرخي فإنه حضر عند أستاذ الدار وعتب عليه فقال له ابن الكرخي : «إنما سخرت به حتى خسر ألف ألف دينار وضحكنا عليه» ، فقال له : «لقد عملت جيداً ونعماً فعلت» ، وكان مع ذلك يضرر لابن الكرخي السوء ويدبر في هلاكه .

(١٣٨) وأما عام الدين ابن رئيس الرؤساء فإنه خاف على نفسه فضى إلى ابن القصاب — وكان حينئذ في خدمة الدار أستاذ يرسله إلى الجوانب- فسأله أن يشفع له ويستوهب له ذنبه ، فشفع له فوهبه جرمه ، وسأله أن يأذن له في الحضور على طبقه في شهر رمضان ، فأذن له في ذلك .

* * *

وفيها كان الفراغ من بناء دار المستناة التي على شاطئ دجلة، وكان المتولى عمارتها الحاجب الأعز ، وهي أول دار شرع الخليفة في عمارتها للتنزه والفرجة ، وهي أول دار فرشت طوايق ملونة : أزرق وأحمر وسائر الألوان ، وكان الخليفة كثير الملازمة لها والحضور فيها ، وهي من الدور المستحسنة بنيت على طرف السور مما يلي دجلة ، قد غرم عليها أموالاً جمّة ، ولما تم عملها نقل إليها فرساً كثيرة وآنية من ذهب وفضة ، ورتب فيها جماعة من الممالك والخدم لحفظها وحراستها يلزمون الخدمة فيها دائماً وإلى الآن ، فإذا كان راكباً في دجلة أو على ظهر وأراد الدخول إليها تكون مهياً للقعود فيها والسكنى بها ، وجعل لهذه الدار حرمة قاطعة كحرمة التاج الشريف بحيث لا يقدر أحد يقعد تحتها ولا يدنو منها ، إلا إن كان سائراً في سفينة فحسب .

وكان أستاذ الدار قد وصف للخليفة نويس المغنبة زوجة ابن رئيس الرؤساء وعائشة السوداء زوجة ابن الكرخي ، فنفذ وأحضر المرأتين المذكورتين ، وأحضر جماعة منهم نجاح وأبو العز ومحمد بن يحيى [الفراس] وابن الكرخي وأبو على الدوامي وجماعة من المماليك وفرأش^(١) الدار ، وكان قد اتفق جماعة من الناس وأكثر أهل بغداد بأن مايبغداد مغنية أصنع من عائشة السوداء ، ولا [غناء] أطرب من غنائها ولا [صوت] أرق من صوتها ، وذكر أن الخليفة قال للكرخي في تلك الليلة «فنها^(٢) ركوبهم ومنها (٣٨ ب) يا كلون ، ، يعنى بذلك ابن الكرخي وزوجته السوداء المغنية ، فعجب الناس من قوله وقالوا : «استشهاد في موضعه ، .

* * *

وفيها قدم إلى بغداد ابن رئيس همدان وكان معه مال كثير وغللمان وخدم ، ومعه من جملة مماليكه مملوك حسن الهيئة تام الخلق يقال له «سنجر» ، وكان له خيمة مضروبة على شاطئ دجلة عند مشرعة مشهد أنى حنيفة رضى الله عنه ، فكان كذلك أياما لايزال يشرب الخمر وكان لايزال مخموراً ، فبينما هو كذلك إذ دخل عليه جماعة من العيارين ليلا فقتلوه وهو سكران وأخذوا كثيراً مما كان معه من الأموال ، وأصبح الناس يخوضون في حديثه ، واتهم جماعة بقتله ، وكان أكثر أهل بغداد يزعمون أن قاتله بدران الحسامي ؛ وعلم الخليفة بقتله فتقدم إلى أستاذ الدار بالكشف عن قتله ، فتقدم أستاذ الدار بالكشف عن الحال وأخذ سنجر وقال «إن أمير المؤمنين قد كبرت عليه هذه الحال ، فبقى^(٣) سنجر أياما كثيرة لم يخرج من الدار ، فلما خرج وركب كان عليه وعلى فرسه مايساوى خمسة ألف دينار إمامية ، وصار سنجر يخرج ويدخل إلى البدرية كل يوم ، وكان يخرج وعليه في

(١) في الأصل «رفاشين» .

(٢) قرآن كريم سورة يس ٣٦ : ٧٢ .

(٣) يستدل من هذا الكلام على أنه لايزال حيا ، على حين أن مفهوم الخبر - قبل

ذلك ببضعة أسطر - صريح على أنه قتل .

كل وقت لون من الثياب الفاخرة ، وحصل له من المنزلة عند الخليفة ما لم يحصل لأحد منه قبله ، وهو على غاية من العقل والسكينة ، وكان مع ذلك لا يزال الخليفة يصفه بالعقل ويقول : « مارأيت ولاملك الملوكة أعقل من سنجر ولا مثله ، إلا أن فيه ظلماً »^(١) ، وكان مع ذلك قليل الصمت ، وكانت حاله كلما جاءت كثرت .

وسنذكر زيادة منزلته في كل سنة بقدر ما انتهى إليه حاله إلى الآن .

وفيها اشترى إياس الرومي وكان من أحسن الناس خلقه ، واستخدم ابن امرأة لأبي الفتوح المغني ويعرف بأبي الحسن ، وكان من المذكورين ببلاده^(٢) (١٣٩) بالجمال المفرط ، وفرض له كل سنة مائتين وخمسين ديناراً ، وجعل في جملة الممالك الخواص .

* * *

وفيها احتال عبد الوهاب وأخذ قلعة المهكي وهي من أحسن القلاع التي بالعراق ، وصورة ذلك — كما ذكر لنا — أنه كان لعبد الوهاب راعي غنم ، فضى إلى تحت القلعة المذكورة ، فرأى في رأس الجبل الذي عليه القلعة شجرة قوية فعاد إلى عبد الوهاب وأخبره بما خطر له ، فضى مع الراعي يرعى الغنم ذلك اليوم ويبصر ما قاله الراعي وما خطر له ، فلما شاهد الموضع رجع وأحضر نجاراً وقال : « أريد تعمل لي سلماً يكون عدة أقطاع ، ويوصل بحديد ، ويكون على شكل أعمدة الخيم » ، فلما فعل ذلك وحصل جميع ما يحتاج إليه أحضر جماعة من بني عمه وأتى إلى تحت القلعة في ليلة مظلمة كثيرة الهواء والمطر ونصب السلم ، وصعد واحد من الجماعة واجتهد على رؤية الشجرة فلم يقدر ، فقام يرمى نفسه يميناً وشمالاً وهو قائم على رأس السلم ، وأشرف على الهلاك وكاد أن يسقط ، ف وقعت إحدى يديه في الشجرة فتعلق بغصن منها وصعد إليها فاعتنقها ساعة حتى رجع روعه إليه ، وكان

(٢) غير مقروءة في الاصل .

(١) في الاصل « ظلم » .

معه جبل مشدود في وسطه فخله ورمى بطرفه إلى إحدى شرافات القلعة، فعلق بها وصعد فصار في رأس القلعة، وألقى الجبل إلى جماعة فصعدوا إليه واحد بعد واحد، إلى أن تساملوا في القلعة.

وكان بها مملوك من ممالك المستنصر بأمر الله - رضى الله عنه - وهو سكران، فزلوا إلى الموضع الذى فيه المفاتيح فقتلوا من كان هناك وأخذوا المفاتيح ودخلوا الخزان فلبسوا العدة الكاملة، وخرجوا إلى المملوك فقتلوه على (٣٩ب) [فراش]^(١) نومه، وفتحوا الأبواب، وقتلوا جماعة وأطلقوا من أرادوا وملكوا القلعة، ورموا^(٢) رأس المملوك ورؤوس الجماعة الذين قتلوا معه من القلعة؛ وصار عبد الوهاب متحكماً بذلك المكان.

وبلغ الخبر إلى بغداد فأمر الخليفة بإخراج العسكر المنصور، وكان المتقدم على العسكر سنقر الكبير المستنجدى، وخرج معه جماعة من الممالك الأمراء الكبار، مثل سنقر الصغير وغرغلي، ومضى معهم الكافي ابن الهمذاني وكان خبيراً بتلك الحطة، فسار العسكر إلى أن نزلوا قريباً من القلعة وراسلوا عبد الوهاب وبذلوا له أموالاً كثيرة وإقطاعات جليلة فلم يقبل^(٣) ولم يلتفت إلى قول أحد واعتصم بها، ولم يمكن العسكر من الدخول إليها لوعر طريقها وامتناعها، وطالت المدة فتقدم الخليفة برجوع العسكر لما أعجزهم الأمر.

فلما دخل العسكر إلى بغداد أمر الخليفة بالقبض على حسام الدين غرغلي وعلى سنقر الصغير.

وكان في نفس الخليفة على سنقر الصغير حقد من زمن أبيه لأنه كان قد اتفق مع ابن العطار - حين كان مسئولياً على دار الخلافة - أن

(١) غير واردة بالأصل.

(٢) «أرموا» في الأصل.

(٣) في الأصل «يفعل».

لا يرتبه خليفة وأراد أن يرتب^(١) أخاه الأمير أبا منصور عوضه ؛ فلما قبض عليه حمله إلى التاج العتيق وجعله في دار الحشاشيف ، وكذلك فعل بحسام الدين غرغلي ، وأخذ جميع ما كان لهما من خيل وبرك^(٢) وذهب وآلات حروب وُعُدد حتى نقل من دار سنقر الصغير أموالا كثيرة من آلات وثياب وذهب وفضة وغير ذلك من يوم الجمعة إلى الجمعة ما لا يحصى له حصر ، وقيل للخليفة - أيده الله تعالى - أن لسنقر الصغير أموالا مدفونة في داره ، فأمر بنقض الدار فنقضت ، وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال ، وأخذ من جاريته - أم أولاده - ثلاثين ألف دينار ، ونقل أولاد سنقر (١٤٠) الصغير إلى دار في قصر الخلافة فتركوا بها ، ووكل بهم جماعة من الفراشين ، وطلبت أم الخليفة - أجلّها الله تعالى - منه موضع دار سنقر الصغير لتعملها رباطاً للصوفية فأذن لها في ذلك ، وسألته عمارة الموضع فتقدم إلى أستاذ الدار بعمارة الموضع فشرع في عمارته من ديوان الأبنية ، وجمع له من الصنائع والبنائين والنجارين وسائر أصحاب الصنائع جماعة كبيرة ، فبنى الموضع أحسن بناء يكون ، وهو في المحلة المعروفة بالمأمونية - أحسن موضع من بغداد - في وسط السوق .

وفيهما نفيت^(٣) امرأة كانت تعرف بالخليفة وكانت فيمن يدخل إلى دار حسام الدين غرغلي وأمر بنفيها إلى البصرة ، وسبب ذلك أنه نقل عنها أنها قد أحضرت عندها جماعة من الاسماعيلية من حلب ، حتى يتعرضوا^(٤) لقتل الخليفة وقتل أستاذ الدار أمين صاحب ، وكان زوجها ركابيا^(٥) من

(١) في الاصل « ترتب » .

(٢) البرك هو التمتع الخاص من ثياب وتماش وخلافه ، انظر في ذلك :

Quatremère: Hist. des Mamlouks, t. I, pt. 1, p. 253, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) في الاصل « أنفيت » لم ينقط فيها غير التاء .

(٤) « يتعرضون » في الاصل .

(٥) الركابي أو الركابداري أحد طائفة ممن تحمل المشاعل امام ركاب السلطان أو الخليفة في مواكب العيد وأمثاله راجع القلقشندي : صبح الاعشى ٧/٤ ، ١٢ ، والقرينى : الخطط ٢٠٩/٢ .

ركاية الخليفة فقبض عليها وأخذت في سفينة إلى البصرة ، وتقدم الخليفة بغلق باب الأمير حسام الدين غرغلي وضربوا فيها مسامير بحيث لا تفتح ، وكذلك فعلوا بالمحارق من أعلى الدار وضربوا فيها مسامير بحيث لا يصعد أحد إلى سطح الدار ، ووكّل أيضاً بالدار جماعة من الفراشين .

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين من الفزوات والفتوحات والأحوال بمصر والشام في سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة]

ودخلت هذه السنة والسلطان نعيم على البركة^(١) من أرض مصر بجميع عساكره ، شديد العزم على قصد الشام ، فكان رحيله^(٢) من البركة يوم الاثنين خامس محرم فصار على طريق صدر ، وكان نزوله على أيلة بعد خمس ليال ، فبلغه حينئذ نزول الفرنج على الكرك بجمع كبير (٤٠ ب) فحين تحقق ذلك قال لأخيه تاج الملوك بوري : «خذ الناس^(٣) معك وسر بهم وما معهم من الأتقال والتجارة على طريق يمينه منا » ، فامثل أمره وصار بهم .

وأما السلطان فإنه سار بمن انتخب من عساكره وتوجه بهم إلى الكرك ووصل إليها بعد أيام فوجد بها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزلنا قريبا منهم فأذللناهم وضائقناهم حتى لاذوا بالجدار فاستولينا^(٤) عليهم فقطعنا أشجارهم ورعيننا زروعهم ، وجعلنا نحن الغارات عليهم مدة عشرة أيام ، فلما رأى

(١) المقصود بذلك بركة الحبش .

(٢) كان هذا آخر رحيل له عن مصر اذ لم يعد إليها ، انظر ابن الأثير : الكامل ١٩٤/١١

(٣) الوارد في ابن الأثير نفس المرجع والجزء والصفحة أنه سر « الضعفاء والانتقال »

مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق غير مستبق معه سوى العساكر القاتلة ، راجع

أيضا الروضتين ٢٨/٢ س ٩ - ١٢ .

(٤) يستفاد مما ذكره ابن الأثير ١٩٤/١١ أنه لم يخرج إليه من الفرنج أحد رغم كثرة

تنة الغارات في هذه السفرة على أطراف بلادهم لاسيما الكرك والشوبك .

السلطان ذلك أمر الناس بالرحيل خوفاً من قلة أزوادهم وسار من يومه ،
فبينما نحن سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عمي 'عز الدين فرخشاه
في غزوة دبورية^(١) .

* * *

ذكر غزوة دبورية

لما تحقق الفرنج رحيلنا من مصر بالعساكر وما انضاف إليها من الناس
والتجار اجتمعوا على الكرك كما ذكرنا لقربهم من الطريق ، وكان غرضهم
في ذلك إنتهاز فرصة يحدونها ، فلما أذلهم الله تعالى بياسنا وطال مقامنا عليهم
تلك الأيام المديدة ووصل عمي فرخشاه خبرنا نفر بمن معه من الفرسان
وتبعه جماعة كبيرة من الناس ، واغتنم خلوهم من بلادهم فسار إلى دبورية
وأهلها غارون ، فأغار على ربيضها فقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر نحواً من ألف
نفر بين كبير وصغير ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وأحرق وخرب ، ونزل
على حبيس^(٢) جلدك ففتحته ، وهو حصن من أعمال طبرية ، وكان اجتماع
عمي فرخشاه مع السلطان دون بصرى ، ثم نزلنا بها وسرنا منها متوجهين

(١) ضبطها ناشر مراصد الاطلاع بفتح الدال وتشديد الباء المضمومة ، والوارد هناك
٥١٣/٢ في تعريفها انها بلد قرب طبرية من أعمال الاردن ، ووردت بصورة Daboura
في كتاب Dussaud: Topographie de la Syrie, p. 382 بأنها واقعة في شرقي
بحيرة حولة .

(٢) لما تم فتحه اسكنه المسلمين وبذلك صار هذا الحصن عينا على الفرنجة ، راجع
أبا شامة : الروضتين ٢٨/٢ ، وانظر ايضا Grousset: op. cit., II, p. 717
أما فيما يتعلق بالناحية الجغرافية فقد ذكره مراصد الاطلاع ٣٧٨/١ فقال « الحبس قلعة
بالسواد من أعمال دمشق يقال لها حبيس وياقوت ٢٠١/٢ ، Dussaud: op. cit.,
p. 363 et seq. حيث عرفه بأنه صخرة تسيطر على الاقاليم الاسلامية ، ويرجع هذا
المؤلف أن موقع حبيس جلدك اليوم هو ما يعرف بقصر بروبيل شمال العال .

إلى دمشق فكان دخولنا إليها يوم الاثنين سابع^(١) عشر صفر، فلم يزل السلطان بها تمام الشهر المذكور وأياما قلائل من شهر ربيع الأول ، ثم توجه إلى غزوه طبرية وبيسان .

ذكر غزوة طبرية وبيسان (٢)

ولما وصل السلطان إلى دمشق اجتمعت إليه عساكر الإسلام فسار بهم إلى طبرية وبيسان وذلك يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول ، فصبح الفرنج يوم الثلاثاء بطبرية فوجدهم قد وصلوا إليها ونزلوا فيها بجمعهم ، فسيرنا جماعة يتطلعون عليهم فلم يجدوا أحداً منهم راكباً ولا خارجاً ، وكنا نازلين من الأخوان^(٣) [من الأردن] على أحد ثغورهم ، فلما رأيناهم قد أحجموا عن لقائنا وأقاموا في موضعهم اتفقنا على المسير إلى بيسان لاستجراهم ، فسبق عى عز الدين فملك ربضها ، وكانت العرب — ومن خف معها — قد انحازت نحوها فأوسعوا أهلها^(٤) قتلًا ، ووصل الخبر من اليك أن الفرنج قد أجلبوا بخيلهم ورجلهم ، فاشتغل السلطان بترتيب الأطلاب وتحريض الناس على الجهاد ، فجعل والدى الملك المظفر فى المينة ، وعى عز الدين فرخشاه فى الميسرة ، وقرب الفرنج منا فأروا من العدة والناس ما هالمهم^(٥) ، فلجأوا إلى حصن^(٦) كوكب ، فسبقت أطلاب' الميسرة

(١) يتفق أبو شامة : الروستين ٢٨/٢ والمتن أعلاه فى هذا التاريخ ، لكن الوارد فى ابن الاثير ١٩٤/١١ هو أن دخول صلاح الدين دمشق كان ١١ صفر من هذه السنة ٥٧٨ هـ وسار على نهجه أيضا التوقيقات الانهامية ص ٢٨٩ .

(٢) الضبط من مراسد الاطلاع ٢٤١/١٤ حيث عرفها بأنها مدينة بالاردن بالغور الشامى

(٣) مراسد الاطلاع ١٠٣/١ حيث ذكر أنها على شاطئ بحيرة طبرية .

(٤) يقصد بذلك أهل جنين واللجون ، راجع ابن الاثير : الكامل ١٩٥/١١ .

(٥) فى الاصل « أهالمهم » .

(٦) عرفه ابن عبد الحق البغدادى : مراسد الاطلاع ، ١١٨٨/٣ بأنه قلعة على الجبل

المطل على طبرية وتشرف على الاردن ، وانها من فتوح صلاح الدين وقد خربت بعده ، كما انها كانت فى وقت هذه الاحداث تابعة للفرسان الاسبتاوية ، انظر فى ذلك ابن واصل : منفرج الكروب ٢٤٦/٢ . راجع أيضا ياقوت : معجم البلدان ٣٢٨/٤ .

وجالت الجايشية ترميمهم بالسهام ، وعطف عليهم والدى بمن معه من الميمنة ، وكنا في واد صعب ومضيق ، وتواترت على الفرنج الحملات فطحتهم الأبطال فصاروا بين قتيل وأسير ، وانهمزوا على أعقابهم لائذين بالحصن ، وكان ذلك يوم الخميس ثانی عشر ربيع الأول ، وأقنا باق يوم الخميس ويوم الجمعة لجنهم منازلين ، ولخروجهم محاولين ، كانت وقعة شديدة استشهد من المؤمنين فيها جماعة من الأبطال ؛ ورجع الناس بما معهم من الأسارى ، وعاد السلطان من غزوة طبرية رابع عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان مخيم السلطان في هذا الشهر « بالعفر »^(١) ، بلاء من أعمال حوران .

ولما (١٤١ب) رجع [السلطان] من غزوة تلك أقام بمخيمه وطال مقامه هناك إلى [أن] تجدد عزمه على قصد حلب وعبور الفرات .

* * *

ذكر قصد السلطان الى حلب وعبور الفرات واستيلائه على الموصل وبلاد الجزيرة وغيرها

لما وصل السلطان إلى الشام عزم على قصد حلب وجهاد من بها ، وذلك لما بلغه عن المواصل أنهم قد كاتبوا الفرنج وأنفذوا إليهم الرسل وبذلوا لهم الأموال ورغبوهم في الخروج إلى الثغور . فقال السلطان : « قد وجب علينا النهوض إليهم والجهاد لهم » ، وكان ذلك عند عودته من غزوة طبرية وبيسان واستقراره بالمخيم . فأمر الناس بالرحيل وسار على سمت^(٢)

(١) بلد بقرب بيسان وطبرية بالأردن ، مراد الاطلاع ٩٤٦/٢ ، باقوت : معجم البلدان ٦٨٨/٣ ، هذا ويلاحظ أن القرينى : السلوك ٧٨/١ ذكر أن مخيم السلطان كان في الفوار من أعمال حوران وليس بالعفر بالا ، وقدرسمها بن الاثير : الكامل ٩٥/١١ بالفين فقال « غفريلا » وهو خطأ .

(٢) راجع الحاشية رقم ١٤٣ .

يلاحظ أن عبارة « على سمت ... بلاد الساحل » في السطر التالي هي نفس العبارة التي استعملها أبو شامة في الروضتين ٢٩/٢ س ٢٣ - ٢٤ مع إسقاط كلمة « بعض » فقط .

ببلبك وخيم بالبقاع ، وكان قد وعد أسطول مصر أن يتجهز إلى بعض
 بلاد الساحل ليوافيه^(١) ويسير بعساكره إليه ، فجاء الخبر أنه وصل إلى ساحل
 بروت ، فبادره السلطان بعسكره جريده^(٢) ، فلما رأى ذلك أمراً بطول
 أعاد عمى عز الدين فرخشاه إلى دمشق ليقوم في سد ثغورها وترتيب أمورها ،
 وتوجهنا بعد ذلك إلى بلبك وخيمنا بمرج عدوسة أياماً ، ورحلنا إلى حصص
 على طريق الزراعة^(٣) فنزلنا بها ، ورحلنا منها فنزلنا بحمص على العاصي ،
 وجاء^(٤) الفقيه المذهب عبد الله بن أسعد الموصلی فدح السلطان بهذه القصيدة :

أعلتَ بعدك وقفتي في الأربع^(٥)
 ورضى طولك عن دموعي المُمع
 مطرت غصناً في منزلك قذاوياً
 في أربع ، ومؤججا في أضلعي
 لم يثن غرب الدمع ليلة غروباً
 ولع العزول بفراط عزل المولع
 يلحى الجفون على الدموع لبينهم
 والعذل - فراط العذل - إن لم تدمع
 (١٤٢) دعى وما شاء التلذذ والاسمى
 واقصد بلومك من يطبعك أو يعي

(١) في الاصل « ليوافقه » .

(٢) الجريدة في الاصطلاح الايوبى والمملوكى بمعنى الفرقة من الخيالة ، انظر :
 Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) لعله يقصد طريق زراعة زقر الذى مرأصد الاطلاع ٦٦١/٢ أنه قرب بالس من
 ارض حلب ، انظر ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية) ج ٢
 ليدن ١٨٧٣ ص ١٦٦ ، وقدامه : كتاب الخراج طبعة ليدن) ص ٢١٨ .

(٤) ازاءها في هامش المخطوطة عبارة « عبد الله بن أسعد الموصلی الفقيه المذهب » .

(٥) « الاجرع » في الروضتين ٢٩/٢ ، وقد وردت هذه القصيدة فيما يلى على الترتيب
 التالى ١ ، ٢ ، ٧ ، ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،

لا قلب لي فأعنى الملام فأبني
أودعته بالأمس عند مودعي
هل يعلم المتحمّلون النجعة
أن المنازل أخضبت من مدمعي
كم غادروا حرصاً وكم لوداعهم
بين الجوائح من غرامٍ موجع
أمروا الضحى أن يستحيل لأنهم
قالوا لشمس خدودهم : لا تطلعي
تحمي قباهمو ظئباً في كلة
وتدود عنهم أسهم في برقع
قل للبخيلة بالسلام تورّعا
كيف استبحت دمي ولم تتورعي !
وبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجوه عناية المبدع
بيضاء يدينها النوى ، ويحلّمها
إعراضها في القلب أطف موضع
ما دام^(١) معتمر بربعك دائماً
يقضى زيارته بغير تمتّع
كم قد هجرت إذ التواصل مكثب
وضررتِ قادرة على أن تنفعي
ماكان ضرّك لو غمزت بحاجب
عند التفرّق أو أشرت بإصبع

ووعدتني إن عدتِ عَوْدَ وصالنا
 هيهات ما أبقى إلى أن ترجعي
 هل تسمحين بيذل أيسر نائل
 أنْ أشتكى وجدى إليك وتسمعي
 أو شاهدي جسمي ترى أين الهوى
 أو فاسألي إن شئت شاهد أدمعي
 والسقم آية ما أجن من الجوى
 والدمع يئنة على ما أذعي
 فنبقني أني بحبك مفرم
 ثم اصنعي بي ما شئت أن تصنعي
 (٤٢ب) يا صاح هل أبصرت برقاً خافياً
 كالسيف سُلَّ على أبارق لعل
 برق إذا لمع استطار فؤاده
 وببيت ذا قلق إذا لم يلعب
 فسق^(١) الربعُ الجونُ رباعاً طالما
 أبصرت فيه البدر ليلة أربع
 ولو استطعت سقيته سَيَّل الغف
 من كفَّ يوسف بالأادر الانفع
 يندى^(٢) فقي لو أن جود يمينه
 للغيث لم يك ممسكا عن موضع
 للبعثين رخاء ربح سجسج
 والمعتدين عجاج ربح زعزع

(١) في الروضتين ٢٩/٢ « ما بال » .

(٢) « عفى » في الروضتين ٢٠/٢ .

(٣) « يندى » في شرحه .

ربّ المكارم وُضِّحَا لم يستر
بدنيّة يوما ولم يتقنّع
ومديم بذل النفس غير مفرط
وكثير بذل المال غير مضيع
فإذا تبسّم قال : يا جود اندفق
فيضا وياسحب الندى لا تقلعي
وإذا تنمّر قال : يا أرض ارجني
بالصاهلات ، وللجبال تزعزعي
وإذا علا في المجد أعلى غاية
قالت له الهمم الجسم : ترفع
ثبت الجنان - إذا القلوب تطايرت
في الروح - يعدل ألف ألف مدرّع
فضّل الورى بفضائل لم تتفق
في غيره ملكا ولم تتجمّع
مارام صعب المرتقى متصاعدا
إلاّ وكان عليه سهل المطلع
جمع الجيوش فشّت شمل عداته
مافرّق الأعداء مثل بجمع
لم يثنه عن نصره حلفاءه
عدّدُ العدو ولا بعاد الموضع
بمحافل مثل السيول تدافعت
وإذا السيول تدافعت لم تدفع
(١٤٣) إنّ يتبع فلكم له من تابع
أوفى وأوفر عزة من تبع

من دوحة شاذية أَرَجَتْ لها
الدنيا لطيب شذأ لها متضوع
والناثرين الهام يبرق بيضه
والحارقين مضاعفات الأذرع
قوم إذا ارتفع الصرخ تبادروا
نحو الحمام بكل أبلج أروع
والواصل قُصِرَ الظبي بخطاهمو
والقاطعين بها طوال الأذرع
لا يغرُرَنَّ الروم بعدُ ديارهم
إن الخليج عليك أقرب مشرع
لو أن مثل البحر سبعة أبحر
من دونهم وأردتهم لم تمنع
كم وقفة لك في الوغى محمودة
أبدأ وكم جود حيد الموقع
والطير من ثقة بأكل مُشيع.
تبع جيوشك فوق غاب مُشيع
والناس بعدك في المكارم والعلا
رجلان : إما سارق أو مدعى
يا غيث منسكب وما حلّ مربى
بنداك إلا ذا غدير مترع
راجعتُ فيك الشعر بعد طلاقه
طمعا بجودك أى موضع مطعم
لولاك لم أرض القنوع وذله
من بعد طول تعزّز وتفتح

فسؤال جودك عزةً للمجتدى
ونذاك تشريف ورفعة موضع
فاسلم على مرّ الزمان متمعا
بالملك دهرأ والمحل الأرفع
فإذا بقيت فاست أحفل من مضى
وإذا حيت فما أبالي من نُعى

ثم إن السلطان بقي بجمص أياما قلائل ورحل منها قاصداً إلى حماة فنزل بها، وكانت [حماة] لوالدى (٤٣ب) الملك المظفر وكنا معه، فأمره السلطان أن يرتب أمور حماة ويرتب أحوال ثغرها فعمل ما أمره ، وبقي السلطان بحماة يومين ثم رحل عنها يريد حلب وفي عزمه النزول عليها ، فبينما^(١) نحن سائرون وإذا قد وصل كتاب مظفر الدين كوكبورى^(٢) بن [زين الدين] على [بن بكتكين] كوجك ، فأعلم السلطان بوصوله إلى خدمته والدخول تحت أمره وطاعته ، فلم يلبث أن وصل مظفر الدين [كوكبورى] واجتمع بالسلطان وخلي به وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على تلك الممالك والولايات، وقال له: «أنا بين يديك وناصحك ومحب لأيامك، وقد علمت ما المواصلات عليه من نكت إيمانك وعهودك ، وإذا ملكت تلك البلاد

(١) يستفاد من هذا الكلام ان مظفر الدين كوكبورى وصله وهو سائر الى حلب بعد رحيله عن حماة ، على حين ان رواية ابن الاثير : الكامل ١٩٦/١١ تنص صراحة على أن هذا الكتاب وصله « وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه ، محب لدولته ، ووعده بالنصر اذا عبر الفرات . . فسار صلاح الدين عن بيروت » . يضاف الى هذا ان السبب الذى حدا بمظفر الدين كوكبورى لهذا الموقف هو أن الوحشة كانت قد دبّت بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ومجاهد الدين فايماز ، والواقع ان كوكبورى كان فى نفسه احن من خصاب الموصل ، ومن ثم فقد أنح على صلاح الدين ان يبدأ بالموصل عقب انتصاره فى نصيبين كما سبلى هنا ص ١٠٢ - ١٠٣ راجع ايضا ابن واصل : مفرج الكروب ١١٦/٢

واستوليت عليها يبقى لك من ورائك ذخيرة ونجدة ، وأنت بعد ذلك على أثناء عزمك ، وإن قصدت حلب فإنها تشغلك عن الأمور ومهمات الجزيرة وولاياتها ، وقد حصلت لك المحبة العامة والمهابة في قلوب الناس ، ومتى عبرت الفرات سلمت إليك البلاد وأطاعتك العباد ، فملكك حران والرها والركة والخابور ^(١) ونصيبين وسائر المواضع وملكك الموصل لا محالة ، وما هناك في تلك الجهات أحد يقدر على عصيانك ، ، فشكره على ما ظهر منه واستوثق منه وودعه ورجع إلى حران .

وأما السلطان فإنه توجه نحو البيرة ومد الجسر وأمر الناس بالعبور ، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحب ^(٢) ماردين فاستولى على مواضع من أعمالها ، فلما سمع بوصولنا إلى الفرات انهزم من كان من أصحابه بتلك الخطة ، فأعدنا إليها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي ، وشرعنا في أمر العبور ، وبدأنا ننقل الأثقال إلى بطون السفن خوفاً من ازدحام الناس على الجسر ، وضرب كل منا خيمة بالجانب الشرقي [و] تحول السلطان عنه وتخفف نحوها ثقله (١٤٤) ، وأمددنا من معاقل الأرمن بسفن كثيرة فعبّر الناس كافة ، فلما قطعنا الفرات كاتبتنا ^(٣) أصحاب الأطراف ليدخلوا في الطاعة ، فمن سلم سلمت عليه بلاده ، ومن أبى توجهنا إليه ، فأول من وصل إلينا رسول نور الدين محمد بن قرا أرسلان [بن نعمان بن أرتق]

(١) اسم لنهر كبير مخرجه من رأس عين يصب إلى الفرات من أرض الجزيرة ، وهو يستقبل في يساره مياه نهر ماردين ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس إلى من نصيبين ، راجع ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ٤٤٤/١ ، لى-سراج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٧ .

(٢) هو قطب الدين البلغرى بن نجم الدين الب بن تمرناش بن أرتق .

(٣) (٣) أورد ابن واصل : مفرج الكروب ١١٧/٢ فقرة من الكتاب الذى أرسله صلاح الدين إلى ملوك الأطراف لما نزل على البيرة وهى قوله « من جاء مستسلماً سلمت بلاده حتى أن يكون من أحياء السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة » .

صاحب حصن كسيفا^(١) يذكر وصوله إلى الخدمة السلطانية ويذكر ما سبق إليه من إحسان^(٢) البيت الأيوبي .

• • •

ذكر وفاة عمى فرخشاه عز الدين

ولما عبر السلطان الفرات وافته النعي^(٣) بوفاة^(٤) عمى عز الدين فرخشاه. فتقدم في الحال إلى شمس الدين [محمد بن^(٥) عبد الملك] بن المقدم بالعود إلى دمشق وكتب له منشوراً^(٦) بولايتها ودخول من بها تحت طاعته، فسار من وقته إلى دمشق وتوجه السلطان إلى الرها .

(١) الضبط من مراصد الاطلاع ٤٠٧/١ اذ قال في شأنه انه بلدة وقلمة عظيمة مشرفة على دجلة بين امد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وذكر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٤ - ١٤٥ انه سمي عند الروم Kiplas أو كيف Cephe . انظر أيضا ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٧٧ .

(٢) يقصد المؤلف باحسان البيت الايوبي ان الحال بين صلاح الدين ومحمد بن قرا ارسلان كانت قد استقرت على ان يقوم السلطان بحصار امد ويمتلكها ثم يسلمها الى ابن قرا ارسلان ، وكان هذا الاتفاق قد تم وقت وجود الاخير لدى صلاح الدين بالشام .

(٣) كانت وفاة الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك في جمادى الاولى سنة ٥٧٨ هـ ، انظر ابن الاثير : الكامل ١١/٢٠٠ ، وابن واصل : مفرج الكروب ٢/١٢٤ - ١٢٦ ، والمقريزي : السلوك ١/٧٩ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب .

(٤) الاضافة من ابن واصل : مفرج الكروب ٢/٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥) المنشور اصطلاح خاص بهذا العصر والتالي له في مصر المملوكية ، وهو امر سلطاني ويختلف باختلاف مرتبة الصادر اليه ، فان كان من اعلى الراتب من الامراء كتب في قطع الثلثين من الورق ويكتب في طرفه من يمين الورق بغير هماش « منشور شريف » ويكون هذا مقدمي الالوف بالديار المصرية سواء اكانوا من اولاد السلطان أو الخاصكية وكذلك جميع النواب الاكابر بالممالك الاسلامية والمقدمون بدمشق ، أما ان كان الصادر اليه من أمراء الطبلخانات بمصر والشام فيكتب له في قطع النصف ، وان كان من أمراء العشرات مطلقا بسائر الممالك وكذلك الطبلخانات من التركمان والاكراد فيكتب في قطع الثلث ، وان كان من جملة المالكين السلطانية أو مقدمي الحلقة أو رجالها فيكتب في

في قطع المادة المنصوري ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ١٣/١٥٨ .

ذكر مسيرنا الى الرها وفتحها

ولما وصلنا إلى الرها حصرناها أياما [من شهر جمادى^(١) الأولى]
وكان فيها الأمير غفر الدين مسعود بن الزعفراني ، فأخذ في الجدّ والتشمير
والامتناع ، تخاف عاقبة ذلك فأرسل إلى السلطان بتسليمها^(٢) طلبا للسلامة ،
فأنعم بها السلطان لمظفر الدين [كوكبوري] إضافة مع حران ، ثم توجهنا
إلى حران^(٣) ودخلنا منها إلى الرقة .

ذكر النزول على الرقة وفتحها

ثم إن السلطان توجه من حران إلى الرقة فنزل عليها وحاصرها ، وكان
فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان [المنبجي] ، وكانت قد سبقت منه
إساءة وسوء تدبير رجع عليه وبأله ، فرآى أنه لا طاقة له بمساكرنا فأذعن
وسأل الأمان ، وسلم الرقة وعصم نفسه وماله وخرج منها بجميع ما ملكه
ماخلا ذخائر عدده ورجاله^(٤) وفارقناه ومضى لحاله وأحكم السلطان
الأمور بها ورتب^(٥) أحوالها وجعل فيها بعض الخيام ثم مضى منها متوجها

(١) الإضافة من ابن الأثير : الكامل ١١/ ١٩٦ .

(٢) وقد سلمها إلى صلاح الدزدار الحارس (الموكل بها على مل أخذه منه
بناء على رواية ابن الأثير : الكامل ١١/ ١٩٦ .

(٣) عرفها ابن عبد الحق في مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٩ بانها مدينة قديمة قصبة ديار
مضر ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن جبير قرابة هذا التاريخ الذي تدور حوله هذه
الاحداث فوصف جامعها وسورها واسوانها المسقفة كلها بالاختشاب ، راجع أيضا المقدسي:
أحسن التقاسيم ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، اما الرقة فمن بلاد الجزيرة ، انظر مراصد الاطلاع
٦٦٢/٢ ،

Dussaud: Topographie Historique de la Syrie, pp. 479 et seq.

(٤) كلمة غير مقروءة في الاصل .

(٥) اكتفى المقرئ : السلوك ١/ ٧٨ فقال في شأن حملة صلاح الدين على الرقة .

» انفصل عن حران الى الرقة فملكها وما حو بها » .

إلى عرابان^(١) ، فلما قرب منها خرج (٤٤ ب) للقائنا رجالها ونساؤها واستبشروا بقدومنا وخيمنا على ظاهرها ، فوضع السلطان ما كان عليهم من ضرائب المكوس . وبذل لهم العدل الواسع والإحسان وأزال ما كان من المكوس أيضا بما كسبن وسائر المواضع بالخابور ، ثم قطعنا نهر الخابور على قنطرة الشبتير^(٢) ، متوجين إلى نصيبين^(٣) فكان نزولنا عليها بعد ثلاث ليال وقد تحصنت وتمنعت ، فالستائر على أسوارها مصفوفة ، والمنجنيقات على قلعها مستديرة ، فأشفقنا في حصرها من سفك الدماء وهتك الحرم ، فوكلنا بها من يمنع من الدخول والخروج ، وسلطنا ناسنا على القلعة ووالينا ، فعرف أنه لا محيص له من المحاصرة ، فأرسل بعد أيام في الاستسلام وطلب أماناً من السلطان ، فتسللها^(٤) منه بما فيها من الذخائر ، وأزلنا ما كان في البلد من الضرائب والمكوس ، وعوّل السلطان في ولاية فصيبين على الأمير حسام الدين أبي الهيجاء السمين ، وفي ولاية الخابور على جمال الدين خوشترين .

ذكر الوصول الى الموصل والنزول عليها

ولما رتب السلطان أمور نصيبين وأحوالها توجه منها بجميع عساكره إلى الموصل فنازلها^(٥) من أقطارها بجموع العساكر نوقف هو وجماعة

(١) وقد تحذف الالف الاولى في بعض الاحيان ، وعلى هذه الصورة جاءت في مراصد الاطلاع ٩٢٧/٢ حيث عرفها بانها « بليدة على الخابور من أرض الجزيرة » اما المقدسي راجع بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٧ (فقد قال عنها « انها تل حولها بساتين ، وإلى جنوبها في نصف الطريق بينها وبين قرقيساء ماكسين ، وكان القطن يكثر فيها » ، انظر ايضا Dussaud: op. cit., pp. 463 et seq.

(٢) كتب هذا الاسم على رسمه الوارد في الروضتين ٢٢/٢ .

(٣) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام ، وكانت تعرف عند الروم باسم Nisibis انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٤ - ١٢٥ والمصادر التي اعتمد عليها في وصفها في مختلف العصور .

(٤) أي أنه تسلم منه قلعة نصيبين .

(٥) كانت منازلته اياها يوم الخميس ١١ رجب ٥٧٨ هـ ، راجع ابن واصل : مفرج

حلقة مما يلي باب^(١) الروم [محاذي^(٢) باب كندة] ، وجعل والدي من جهة الشرق بباب شرقي ، وأخاه تاج الملوك بوري عند باب العماري فضايق البلد أشد مضايقة ؛ وكان صاحب الموصل حينئذ أنابك عز الدين مسعود بن مودود ونائبه مجاهد الدين قايماز قد تولى حفظ البلد ، وكان قد كاتب^(٣) الديوان العزيز واستشفع إلى المواقف المقدسة الناصرة لدين الله باستصلاح شأنه وكان رسول عز الدين ابن أبي الصاحب أستاذ الدار العزيزة يتولى مهامه فحسّن لأمير (١٤٥) المؤمنين - ثبت الله دعوته - إنفاذ شيخ الشيوخ بالشفاعة إلى السلطان .

ذكر وصول رسل الخلافة

ووصل إلى السلطان^(٤) الخبر بوصول رسل الخلافة وهم : صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشر ومعهما من خواص الديوان^(٥) جماعة كبيرة

(١) لعله يقصد الناحية المواجهة لبلاد الروم ، فقد ورد في لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٠ - ١٤١ عبارة باب ١ لروم في وصف آمد وذكر - نقلا عن المقدس أن ذلك في تخوم المسلمين بوجه الروم .

(٢) الاضافة من الكامل لابن الاثير ١٩٧/١١ .

(٣) الوارد في مفرج الكروب ١٢٢/٢ أن صاحب الموصل سير القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا الى الديوان العزيز ، انظر ايضا الروضتين ٣٣/٢ .

(٤) تفيد العبارة الواردة بالثن ان الافادة الخليفة جاءت الى صلاح الدين من أجل اصلاح الامور بينه وبين صاحب الموصل على أن ابن شداد كان قد انفذه عز الدين مسعود رسولا الى الخليفة سائلا اياه ان يبدل من رأيه لدى صلاح الدين ما يمنعه من الهجوم على الموصل ، الا ان الديوان العزيز لم يقم بعمل جدي يرضى به صاحب الموصل بل اكتفى بان يبعث الى شيخ الشيوخ - وكان في صحبة صلاح الدين - يطلب منه مفاتيحه في الصلح ، ولقد ورد في مفرج الكروب ١٢٢/٢ قوله على لسان ابن شداد « آتيت بغداد .. مستنجدا بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ الى صدر الدين شيخ الشيوخ - وكان في صحبة السلطان - بأمرونه بالحديث في الصلح » ومن ثم فانه يستدل من قول ابن شداد على أن شيخ الشيوخ كان مع السلطان من قبل ، ومما يؤكد هذه الرواية ما يشير اليه ابن الاثير : الكامل ١٩٨/١١ في قوله « كان صدر الدين شيخ الشيوخ قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشر الخادم .. في الصلح فاقاما معه على الموصل »

(٥) ممن أشار اليهم القرطبي في السلوك ٨٢/١ القاضي محيي الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزوري وبهاء الدين بن شداد .

فتلقاهم السلطان بالرحب والإكرام وأنزلهم قريبا منه ، وشاع في العسكر وصول شيخ الشيوخ في الصلح وإطفاء نار الحرب ووصل أيضاً حسن الجاندار رسول مظفر الدين قزل أرسلان [صاحب أذربيجان] في الشفاعة أيضاً ، وقال جماعة من الأمراء والأجناد : « هؤلاء غدا يصطلحون ونحن نحظى بالشفاء والحرمان » . لكونهم لم يطلعوا على حقائق الأمور ، والسلطان يصريح بإباء المصالحة وترك قبول الشفاعة واستفراغ المجهود في شغل الحصار والناس يقولون : « هذا لا يستتم ولا يدوم » ، وفي كل يوم ينابو القتال ، والذى الملك المظفر يحمل من جانبه وينازل القوم ، وكذلك تاج الملوك [بورى] أخو السلطان ، وشيخ الشيوخ ينهى الناس وينكر عليهم ذلك ويصدّهم عن القتال ، وأتى إلى السلطان وقال : « إنما أتيت إليك مستشفعا في أمر هؤلاء القوم فاعدلوا عما أنتم عليه حتى أرسل إلى القوم وأنظر ما هم عليه » ، فقال له [السلطان] : « سمعا وطاعة » ؛ فأرسل شيخ الشيوخ إلى القوم صاحبه ^(١) فشرعوا ^(٢) يندبون كل يوم رسلهم بالمراسلات الخادعة ، فخرج أول يوم جمال الدين محاسن ومجد الدين الشريف أخو نقيب الطالبين فحضروا عند شيخ الشيوخ في خيمته ، وأنفذ [شيخ الشيوخ] إلى السلطان من عرفه وصولهم واستدعى منه إنفاذ بعض ثقاته لاستماع كلامهما فتقدم السلطان إلى الأجلّ الفاضل وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منهما ، ففضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ ، فأذهبا ذلك اليوم بالكلام الذى لا محصول له ولا فائدة فيه ، ثم قالوا : « خلنا (دع) ونخرج غدا بالأمر المعين » . فلما كان من الغد خرجوا وطلبوا مطالب كثيرة وأشياء متعدّدة ^(٣) ، واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة ، وطال الحديث منهم بما لا فائدة فيه ، وكان غرضهم تمحيض الأوقات . فسكتوا على ذلك قريبا من شهر لا ينتهون .

(١) يعنى بذلك بشيرا الخادم .

(٢) في الاصل « فشرع » والمقصود بذلك المواصلّة .

(٣) كلمة يمكن قراءتها أيضا « متعدّدة » مما يطابق كذلك الخواتيم التى وصلت اليها هذه الرسلية .

إلى أمر مستقر ويقصدون الخدع والختل ، وشيخُ الشيوخ يتوهم من السلطان أنه لا يؤثر الصلاح ، فلَمَّا تبيّن السلطان ذلك منه دخل لهم تحت ما أرادوه ، واستقر الأمر على أن يردّوا على السلطان حلب^(١) ويردّ عليهم جميع ما اقترحوه ، وكان قد تبيّن الأجلّ الفاضل فحوى مقالهم وما هم عليه من الخداع والمحال ، فانقطع عن الحضور وتعدّر بعذر ذكره ؛ وكان الفقيه عيسى يحضر لسماع مقالاتهم وإنهاؤها إلى السلطان ، ثم انقطع الفقيه عنهم فوجدوا بذلك مهلة ، فكانوا في أثناء ذلك يستنجدون ملوك الأطراف ويظهرون الوفاق حتى تبيّن للناس ما عليه من الخلاف ، واستقر أن يدخل شيخ الشيوخ [إلى المواصلّة] لينلّسوا ما عندهم .

• • •

ذكر دخول شيخ الشيوخ الموصل

ولما طال الأمر ولم يتحقق من المواصلّة ما هم عليه استقرّ أن يدخل إليه شيخ الشيوخ لإبرام العهد وإحكام العقد ، فدخل إليهم ، فكان عندهم يوماً و ليلة ، فرآهم متنكبّين عن سلوك النهج وآراءهم مختلفة ، فذكر لهم ما قاله رسولهم فأنكروه ، وقالوا بعد كلام طويل : « إن أراد صلاح الدين وفاقنا فليرحل عنا ويردّ بلادنا ونحن نخلى بينه وبين حلب ولا يطلب منا مساعدة ، لأن لنا مع عماد الدين زكي يمينا وعهداً ، فإن رضى [صلاح الدين] بهذا وإلا فما سمع الناس ، ولا قلنا » .

وكان قد استقر مع الرسل أنهم يسلمون إلى السلطان حلب ويستعبدون منه البلاد فندموا على ما قدّموه من التقرير ، وتبيّن لهم ما كان المواصلّة عليه من الخنث (١٤٦) والمخادعة ، فأنصرف شيخ الشيوخ من عندهم متوجهاً إلى بغداد ، لجأوا إليه وتضرّعوا له وقالوا : « ترجع إليه وتعبد عليه ما سمعته

(١) الواقع ان الاتفاق - كما يشير ابن الاثير : الكامل ١١/ ١٩٨ - لم يتضمن موافقة المواصلّة على تنازلهم لصلاح الدين عن حلب وانجادهم صاحبها عليه .

منا ، وتلطّفُ به في الخطاب ، ، فلما اجتمع بالسلطان استعفى من التسكّم واستوفى حديثه ما سمعه من الأقسام ، فقال له [صلاح الدين] هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهَبُ لوصولك الموصل ، ، وكان نزول السلطان عليها في رجب وعشرة أيام من شعبان .

* * *

ذكر رحيل السلطان الى سنجار ^(١) وحصارها وفتحها

كان ^(٢) من سنجار من المواصلّة - مدة مقام السلطان حصار الموصل - يقطعون دونه من أراد الوصول إليه ، فأمر السلطان ابن أخيه - والذي الملك المظفر - أن يمضي يحصر سنجار ، فسار بمن معه من العسكر حتى صبح بأرنجان ، فوافاه عسكر مجرد من المواصلّة إليها ، فعبى أصحابه ميمنة وميسرة ، وعطف بهم فأحاط بهم ^(٣) فكبسهم جميعا وأخذ خيولهم وعددهم ، ووكّل بهم من ردّهم إلى الموصل رجالة ، واحتبس عنده جماعة من مقدميهم ، وكتب يخبرهم إلى السلطان ، فلما وصله ذلك رحل من الموصل إلى سنجار بجميع عساكره ومعه رسل الخلافة ، ونزل على سنجار بعد ليال فكان نزوله عليها في العشر الأوسط من شعبان ، فضرب مخيمه على عيونها ، واقتسمت عساكره المنازل بأقطارها ، وبدأهم بالمراسلة ، وخوفهم عواقب المخالفة ، فأبوا إلا الجلاّد ولجوا في العناد ، فأمر السلطان بمضايقتهم ، ونصب عليها منجنيقا . واشتدّ النزال ودخل شهر رمضان فأمر السلطان بالإحجام عنهم والاحتراز من إراقة الدماء ، وكان في كل يوم يركب الإرهاب ، وهم مع ذلك يبالغون في التحفظ ، فجاء إلى السلطان ليلة من الليالي من أخبره أن الحراس نيام ، فندب

(١) انظر مراسد الاطلاع ٧٤٣/٢ ، وفيما يتعلق بالطرق بينها وبين الموصل

ونصيبين وامتد والركة انظر لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) تتشابه هذه العبارة وعبارة ابن الاثير في الكامل ، ١١/١٩٨ س ١٥ - ١٦ .

(٣) يعنى المواصلّة .

إليهم جماعة من أصحابه فقبضوهم (٤٦ ب) جميعاً فأصبح الذين بسنجار قد انكسرت شوكتهم وضعف بأسهم، فأنفذ شرف الدين [أمير أميران هندو بن مودود] أخو أتابك [الموصل عز الدين] يطلب أماناً فأجيب إلى ما سأله^(١) ، وسيرت إليه هدايا وتحف وعطايا ، وخرج من سنجانر إلى الموصل^(٢) [بكوسه وعلبه وأجناده ونعمه وحرمة ، وتسلم السلطان سنجانر وقلعتها وخرج إليه أعيانها واستبشروا بقدومه ، وأسقط ما كان بها من المكوس والضرائب ، وجعل فيها والياً :] هو [الأمير سعد الدين^(٣)] [مسعود] بن [معين الدين] أنر ، وكتب رياستها لأحد بني يعقوب ، وعول^(٤) منهم - في قضائها وتنفيذ أحكامها - على نظام الدين مصر بن المظفر .

ذكر رحيل السلطان من سنجانر وتوجهه الى نصيبين ورجوع شيخ الشيوخ الى بغداد وذلك في العشر الاخر من شهر رمضان من السنة المذكورة

ولما رتب السلطان الأمور بسنجانر أحضر الأمراء وأصحاب المشورة ، فأشاروا عليه بالإقامة بمكان يحملهم حتى ينقضي فصل الشتاء ، ومع انقضائه يتوجه بهم حيث يشاء من الأماكن والبلدان ، فامتل ما أمروا به ، ثم نهض

(١) يستفاد من كلام ابن الأثير ، الكامل ١١/ ١٩٨ ، انه يلوم شرف الدين على تسرعه في الاستسلام لانه « لو قاتل على تلك الناحية لآخرج العسكر الصلاحي عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز » .

(٢) الاضافة من مفرج الكروب ، ٢/ ١٢٣ .

(٣) هو أخو عصمة خاتون زوجة صلاح الدين التي تزوجها بعد وفاة نور الدين عنها سنة ٥٧٢ هـ ، وقد زوج صلاح الدين اخته لسعد الدين هذا .

(٤) هذا الخبر غير وارد في ابن الأثير ١١/ ١٩٨ ، ولا في مفرج الكروب ٢/ ١٢٣ .

لوداع شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير بعد ما أصحبهما من التحف السنية والهدايا المرضية للمواقف المقدسة الناصر لدين الله صلوات الله عليها ، وكتب على يده ^(١) كتابا إلى الديوان العزيز بما رأى وشاهد من أحوال المواصلة وما افتعلوه من سوء التدبير والمحال والخذاع .

ورحل السلطان إلى نصيبين فحين قدمها شكأ أهلها من أبى الهيجاء السمين فأمر بصرفه عنهم واستصحبه معه ^(٢) ، وجعل بها بعض أمرائه ، وخرج منها متوجها إلى دارا ^(٣) فتلقاها أميرها صمصام الدين بهرام الأرتقى فأكرمه وأنعم عليه وشرّفه ، ورحل من دارا متوجها إلى حران .

ولما وصلنا إلى حران ضرب السلطان خيمه في ظاهرها ، وأقنا (٤٧) (١) هناك للاستراحة مشغولين بشكر الله تعالى على نعمه ، فأمر السلطان والدى الملك المظفر بالرجوع إلى حماة بعسكره فرجعنا من هناك ، وأمر جماعة من الأمراء بالرجوع إلى أمّاكنهم وبلدانهم ، وأقام السلطان بظاهر حران في خواص أصحابه بقية ^(٤) شوال وذى القعدة وأياما من ذى الحجة ، فلما رأى المواصلة انفراد السلطان عن أصحابه بحرّان وتفرقهم عنه في البلاد حلمهم جهلهم على أن اجتمعوا وتحاشدوا ، وقصدوا حربه طلباً لغرته ووحدته .

ذكر السبب في ذلك :

لما كان السلطان محاصرا الموصل ووصلت رسل ملوك الأطراف والجوانب إليه شافعين لصاحبها ، وكان فيهم رسول شاه أرمن [صاحب

(١) أى على يد شيخ الشيوخ .

(٢) في الاصل « معهم » ولا يستقيم المعنى تماما بهذه الصورة ، وقد صححت أيضا على ما اوردته ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ من ان صلاح الدين استصحب ابا الهيجاء معه » الى حران بعد صرفه عن سنجار .

(٣) دارا بالقصر بلد بالجزيرة في لحف جبل ماردين ، بينها وبين نصيبين ، من بلاد الجزيرة ، وهى واقعة على بعد بضعة أميال شرقى ديسر ، انظر مراصد الاطلاع ٥٠٤/٢ ، لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٦ ، وجدول قدامة في Dussaud : Topographie Historique de la Syrie, p. 497

(٤) نص ابن الاثير : الكامل ، ١٩٨/١١ ، على ان وصوله الى حران كان في اوائل ذى القعدة سنة ٥٧٨ هـ .

خلاط^(١)] فارتحلنا عنها إظهاراً لقبول^(٢) الشفاعة الإمامية الناصرة لدين الله وارتحلنا إلى سنجار ، فلما حصرناها وصل سيف الدين بكتمر^(٣) — وكان أعز أصحاب شاه أرمن — وبذل للسلطان في الشفاعة في سنجار كل ما أمكنه ، واشترط عليه أشياء ما قبلها ، فكلفه السلطان أموراً استقلها ، فنفر طبعه ، وأراد السلطان تشريفه^(٤) فلم يوافق على ذلك وقال قولا غليظا ، وسار إلى صاحبه فأغراه إلى أن خرج بجميع عساكره ، وكان شاه أرمن سكاك خال قطب الدين صاحب ماردین ، وقطب الدين إيلغازي بن ألي بن تمر تاش خل عز الدين أتاك الموصلي ، فكتب إليه واستدعاه فخرج ، فكان اجتماع شاه أرمن وعسكر الموصل مع صاحبها بجوزم ، وهي ضيعة من ضياع ماردین ، وأنهم عسكر حلب والياروقية وكانوا جمعا عظيما ، وبلغ السلطان ذلك فلم يكثر به ، وكتب إلى أمراءه العائدين ، فأول من بادر إليه بالوصول والدى الملك المظفر ، وكان وصولنا من حماة إلى حران في خمسة أيام (٢٧ ب) وقال للسلطان في ساعة وصوله : « قم بنا إلى القوم » ، فقال له : « إنهم في كثرة ولا بأس بالاحتراز ، وهذا عشر شريف^(٥) ، فلم يزل حتى وافقه السلطان على رأيه وسار بمن معه من غير انتظار للعساكر

(١) هي من مدن أرمينية واعتبرها ابن عبد الحق البغدادي : مراصد ٤٧٦/٤ قصة أرمينية الوسطى ، وقد ورد وصفها الجغرافي والعمراني في المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٧٧ .

(٢) الواقع ان رواية ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٧ تختلف في سبب رفع صلاح الدين الحصار عن الموصل عما هو وارد بالمتن فهو عنده لم يفادها « لقبول الشفاعة الإمامية » بل لان صلاح الدين صادف العنف من المواصللة في الدفاع ، « ورأى السور والفصيل وقد ملأ من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل .. فعلم انه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا » فعاد باللائمة على مظفر الدين وناصر الدين بن شيركوه وقال لهما : « غررتما في غير مطعم » ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل اخذا بالاسم والهبة التي حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكر ناموسنا وبقل حدنا وشوكتنا » .

(٣) وهو الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن ، انظر ابن الاثير : الكامل ، ١١/١٩٩ .

(٤) أي يخلع عليه خلعة ويدينه بصلة .

(٥) يعني انه العشر الاول من شهر ذي الحجة .

فزل رأس عين ، فطار خبره إلى القوم فولوا منهزمين يتبع بعضهم بعضا ،
وذلك يوم درقة من ذى الحجة ، فرجع شاه أرمن إلى خلاط والمواصلة
إلى الموصل ، واعتم على صاحب ماردین بحصنه .

وأما عسكر حلب فإنه لم يقدم على الرجوع إليها ونحن على طريقه
ففرقوا ، فذهب من مضى إلى الموصل ثم رجع إلى عانة فعبر الفرات
وطلب حلب .

وأما السلطان فإنه نزل بحوزم وضرب خيمه بها ، وكان بها قصر مشيد
لصاحب ماردین ، فأقام فيه تاج الملوك [بورى] أخو السلطان برسم النزهة .

* * *

فصل من كتاب الى الديوان العزيز من انشاء الفاضل

« اجتمع المواصلة وشاه أرمن وصاحب ماردین ودولت شاه صاحب
أرزن وبدليس وغيرهم على قصد الخادم^(١) حين ظنوا أنه تقلل من عسكره
ونذب إلى الكفار من أمرائه من اكتفى من مغيبه بمحضره ، وقدروا أنه
يتم لهم اغتراره ، ويمسكنهم عواره ، ويتناصرون عليه قبل أن يجتمع أنصاره ،
ونزلوا تحت الجبل ، فلما صح لهم قصد الخادم ظنوا أنه واقع بهم ، فأخذوا
أعنة الفرار بقوة ، وذكروا ما في لقائه من عوائد عندهم بخوفة وعنده
مرجوة ، وسار كل فريق على طريق ، بكيد عدو وفعل صديق ، معتقلا
مالا يهتز ولا يعتز ، ومتقلدا مالا يرقى ولا يريق ، وأعدى أنفسهم بجمع
ليس له تبشير ، وإن كان ما هو جمع سلامة بل هو جمع تكسير .. »

* * *

(١) يعنى بذلك نفسه ، أى صلاح الدين .

ذكر مسير السلطان الى امد والنزول عليها

ولما رجع السلطان من الموصل كتب إلى المواقف^(١)

... ..
... ..

(١٤٨) عليه عوضا عن يده ألف دينار ، لحمل ابن الضحاك إلى الديوان العزيز وترك في التوكيل ، وعجب الناس من تقدم الخليفة في حق المتصرفين بالقطع ، فحكى أبو طالب صاحب باب المراتب عن أستاذ الدار ابن الصاحب أنه سمع من الخليفة أنه قال : « لما كنت أميراً وكان لي إقطاع في نهر ملك ، وكان هذا أبو الحسن بن الضحاك عاملاً في نهر ملك نفذ جماعة من أصحابه وأخذ من إقطاعي رجلاً ، فضى إليه خالص الخادم وخاطبه في معنائه ، وسأله أن يطلقهم أو يقتصر على البعض فلم يقبل ، فجاء إليه وهو في دار ابن العطار وكرّر السؤال عليه فقال له :

« والله ما أطلق منهم رجلاً واحداً ، وتقول سيّدك أبي العباس أحمد : الأمير إذا صار خليفة يقطع يدي ، ولقبه بكل قبيح .

« فلما صار الأمر إلىّ وكتب صاحب الديوان أنه قبض عليه ، ذكرت هذه الحال وتقدّمت بقطع يده كما كان قد سأل ، فكتب إلىّ هذا الكلب يقول لي : إنني قد قرّرت عليه ألف دينار ، والله لا بد أن أقطع يده كما كان قد سأل ، وبق ابن الضحاك في التوكيل إلى أن استوفي ألف دينار وما يقدر أحد أن يسأل فيه .

وحكى أن صاحب الديوان كان له مطبخ وكان لا يطبخ فيه شيء ، بل جميع ما كان يحتاج إليه من عند الناظر ، وكان في طريق خراسان كاتب يعرف بابن جميل ، فكتب رقعة وعلّقها على باب المطبخ فيها أبيات لمرجأ شاعر بني أبي الجيرومي :

(١) هنا تنتهي ورقة ٤٧ ب من المخطوطة ، ويبدو أن بقيتها ضائعة إذ لا رابط بين

هذا الكلام وما يليه .

رأيت مضرب شعر فقلت : ماذا السواد ؟
 فقيل مطبخ نصر فقلت : أين الرماد ؟
 فقيل لي : فيه بن وكاخ وجراد
 وليس فيه سوى ذا ومجـال يراد

(٤٨ ب) تخرج صاحب الديوان أبو علي نصر بن الوكيل راكباً ومعه جماعة وأصحابه ، فرآى الرقعة على باب المطبخ فأخذها وقرأها ، فقال له أحد أصحابه : « هذا فعل ابن جميل الكاتب ، فقصدته وكتب إلى الخليفة في حقه ، وصرفه من خدمته ؛ ودخل صاحب الديوان إلى بغداد وهو مريض ، فما مضى عليه إلا أيام قلائل وتوفي ، وكان الخليفة — أدام الله أيامه — كبير الميل إليه والمحبة له . وكان أحسن أرباب الدولة خلقه ، وذكر أن الخليفة لما أنفذ به إلى واسط وأنفذ منها مائة ألف دينار حملاً واحداً قال : « إنني أريد أن أجعل هذا — ابن الوكيل — وزيراً فإنه مليح الصورة ، وقد عرف قواعد الديوان ، فنقل ذلك إلى أستاذ الدار ابن الصاحب ، فنفذ إلى طريق خراسان من أطمعه . فلما مات كان جماعة ممن كانوا ينسبطون بمجلس أستاذ الدار يهتثونه بموت ابن الوكيل ، فلما مضت أيام قلائل أنفذ أستاذ الدار فأحضر داود الذي كان مشرف ديوان الزمام أيام المستضيء بأمر الله — رضوان الله عليه — وكان قد تصوف وانقطع في رباط شيخ الشيوخ فأحضره ، واستأذن له بأن يرتب صاحب ديوان ، فبرز الأمر الشريف بذلك ، وكان لقبه « مجد الدين » ، فغير لقبه لأن أستاذ الدار كان يلقب بمجد الدين ولقب داود « بكال الدين » ، ونقل إلى دار في القرية المعروفة بقصر الخلافة . وكان مالك الدار يعرف بجلال الدين بن جعفر الذي كان صاحب ديوان في الأيام المستنجدية ، ورتب عليه مشرفاً صني الدين أبو غالب بن الجلال وكان نصرانياً وأسلم ، وسند ذكر قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفيها أشار أستاذ الدار إلى جماعة من أهل بغداد من العوام بأن يتقولوا^(١) إذا ركب ابن زيادة إلى الديوان :

« ياغيث مالي بالغرام يد ،

(٤٩١) وكانت هذه الأبيات قد ذكرت في أيام ابن زيادة ، وكان أستاذ الدار بقصره ويريد صرفه من الديوان العزيز ، وكان يقبح ذكره ويقصده ، فكان ابن زيادة إذا ركب سمع في السوق ضجة عظيمة من العوام « ياغيث مالي بالغرام يد ، ، ليلا كان أو نهاراً .

ثم إن أستاذ الدار حسن للخليفة عزل ابن زيادة والقبض عليه ، فبلغه ذلك فخرج هارباً ، فنزل في رباط شيخ الشيوخ وسأل أن يتصدق عليه بنفسه وأن يؤذن له بالمضى إلى واسط ، فأذن له في ذلك فمضى إلى واسط ولزم داره .

وأحضر أستاذ الدار عز الدين صدقة بن صدقة وأخذ خطه بألف دينار ، ورتبه صاحب ديوان موضع ابن زيادة ، وخلع عليه في الديوان العزيز ، وتقدم أستاذ الدار إلى ابن البخاري النائب أن يوقع إلى ابن فطيرا ناظر الأعمال الواسطية أن يعترض أملاك ابن زيادة وبضيق عليه ويقصد تفبيح ذكره ، وكان سبب ذلك علمهم بحسن رأى الخليفة فيه ، وكان أوحداً الزمان في الكتابة والتراسل لا تله النساء قبله ، وكان محسوداً لفضائله ، وأقام بواسط على نهاية من الضر حتى ناهت به الحاجة ، حتى نقل عنه أنه كان ينسخ بأجرة .

* * *

وفيها ضرب، سكلية بن إيلاجك أمير البصرة دراهم صغاراً وسمهاها ايلاجكية ، كان ذلك بعد موت أبيه إيلاجك بسنة ، ثم إن ابن فطيرا ضمن

البلاد البصرية على أن يكون ابن ايلاجك شحنة لحسب ، وكان ابن ايلاجك المذكور على غاية من البخل والشح ، ثم لم تزل أموره تتناقص إلى أن صرف من البصرة وأُصعد إلى بغداد ، فلما وصل إلى بغداد أنعم الخليفة عليه بالرازان .

* * *

وفيها تقدم الخليفة بإحضار طغرل الخاص - وكان أكبر مملوك رومى - بين يديه إلى الديوان العزيز ، وأن يخلع عليه قباء أسود وعمامة سوداء ، وأُخرجت له من (٤٩ ب) الدار معمة ، وأعطى فرساً وسيفاً ، وخوطب « بعماد الدين » ، وأقطع البصرة ، وجعل فى خدمته خمس مائة مملوك وكبر أمره وذكر عن ابن الأثير - كاتب الإنشاء - أنه سمع من أستاذ الدار ابن الصاحب يقول : « قال الخليفة ما لأحد علينا فى هذه الدولة حق إلا لهذا - طغرل - الذى قد أعطيناه البصرة » ، وكان الخليفة يعلن بهذا القول ويكرره ، وسبب ذلك أن طغرل كان يمشى إلى الأمراء فى السر ويستحلفهم للخليفة ، وقد ألبس منهم جماعة ثياب النساء وأدخلهم إلى الخليفة قلى ولايته وهو أمير^(١) ، منهم الشطرنجى وقطر مش الشحنة وسيف الدين طغلو وجماعة من المماليك .

* * *

وفيها التجأ جمال الدين بن الحصين إلى رباط شيخ الشيوخ خوفاً من آل تنبى الشطرنجى صاحب واسط لأنه كان قد ضمن منه الأعمال الواسطية ، وحضر عنده جماعة من أهل واسط يتألمون منه ويذكرون أنه قد خرب الأعمال ، وقد أخذ جملة من الأموال للرعايا ، فكثير غضب الشطرنجى عليه لذلك ، وكان قد عمل ضمانه وانكسر عليه عشرون ألف دينار .

(١) يعنى بذلك الخليفة نفسه قبل توليه الخلافة .

وأما صدر الدين شيخ الشيوخ فإنه خاطب الخليفة في معنى ابن الحصين فقال : « ماله معنا شغل ، بينه وبين خصمه الشرع ، ، فتحقق ابن الحصين أنه لا منجى له من الشطرنجى ، وكان ^(١) إذا سطوة وشدة وأكثر الناس قساوة وأشد هم تجبرا ، وكان مع ذلك كريما جوادا ، وكان معطاء لاسيما إذا شرب ، فلما شاهد ابن الحصين هذه الأحوال لم يجد بدا من الهرب إلى الشام والاعتصام بجناب الملك الناصر صلاح الدين .

وفيها تقدم الخليفة بنقل عماد الدين إلى البدرية ، فلما انتقل وسكن بها كان الخليفة لا يزال (١٥٠) معه إن خرج أو دخل ولا يفارقه في سائر الأوقات .

وفيها كثر الخليفة — أدام الله أيامه — ليلا يمشى في الأسواق ومعه جماعة ، منهم نجاح الشراى وأبو الحسن بن الكرخى وأبو العز ومحمد بن يحيى الفراش ، وكان يمضى متسكرا مرة في زى العجم ومرة في زى الترك ومرة في زى الفقهاء ، وكان يعتقد أن أمره يخفى على أهل بغداد ، وكان لا يخفى مكانه للذين معه لأنهم كانوا معروفين عند الناس ، فكان كالعلم إذا اجتاز في موضع عُرف بمن هم معه ، فكان الناس يلحون بالنظر إليه ويقفون أثره ويمضون خلفه ، ورأى أن السكوت عنهم بوجوب تكدير الوقت ، وخاف على نفسه فأطلق القتل في كل من يتوهم أنه ينظر إليه أو يقصد أن يمضى في طريقه إلى أن انحسرت المادة ، فكان أهل بغداد إذا غلب على ظنونهم أنه في طريق هربوا عنها إلى أخرى ، وإذا صادفه أحد في طريق ورآه بغير اختياره كاد أن يهلك من شدة الخوف ، وإن استغاث إليه أحد وهو في الصيد فإن خاطبه « بولانا ، أو دعى له وعرف أنه قد عرفه ما يخلو أمره من [أحد] أمرين : إما أن يقتله أو يعرض عنه ؛ ولا يقضى له حاجة ليزيل من قلبه أنه أمير المؤمنين ، إلى أن هرب الناس كافة وهان عنده سفك الدم .

* * *

(١) يعنى بذلك الشطرنجى .

وفيهما ظهر ببغداد التشيع والإعلان بولاء أهل البيت عليهم السلام ، وكان أستاذ الدار ابن الصاحب معروفاً بذلك [هو | وبيته يرثه عن آبائه ، وأعلن بالتظاهر بلعنه معاوية ويزيد ، بحيث أن رضى الدين القزويني ^(١) -مدرس النظامية- كان إذا جلس بمدرسة النظامية مجلس الوعظ يسؤل عن ذلك فلا يرد جواباً ، فقام إليه رجل في بعض الأيام وهو يعظ الناس وسأله أن يلعن يزيد فلم يفعل ، فثار الناس عليه في المجلس (٥٠ ب) وهمّوا بقتله ، وقام جماعة من أهل بغداد وفي أيديهم العصي ورجفوا إلى المنبر ، واتصل ذلك بحاجب الباب ابن صدقة فأنفذ نائبه عطايف بن بختيار ومعه جماعة فمنعوا الناس من الفتنة ، وحملوا الشيخ رضى الدين القزويني المدرس إلى بيت من بيوت الفقهاء مما يلي خزانة الكتب التي بالمدرسة المذكورة وغلقوا عليه الباب ووقف النائب والجماعة والذين معه إلى أن جاء الليل وأخرجوه إلى داره ، وسكنت تلك الغوغاء ومنع الناس من أذيته .

ثم تقدم إلى رضى الدين القزويني أن يجلس بباب بدر ويكون الخليفة هناك ، فجلس وكان ذلك اليوم يوم السبت ، وقام إليه جماعة وكلّفوه بأن يلعن يزيد بن معاوية ، وكان معه ولده الملقّب بالرفيع ، فأشار إليه بلعن يزيد فصرّح بسبّه ولم يسمع أباه شيئاً ^(٢) ، وكان الموضوع فيه جماعة من مماليك الخليفة فلم يقدر أحد من الناس أن يتعرّض بنفسه بل سكّت الناس ، ورأى رضى الدين القزويني أن هذه الحال لا مندوحة لأهل بغداد عنها ، وأنه لا يقدر على المقام دون التظاهر بسبب يزيد ، وأنه متى فعل ذلك هلك جميع من يتعلق به بقزوين وأخذت أمواله وأهلاؤه ، فمضت عليه أشهر وطلب الإذن بالمضى إلى بلده لينظر أهله ، فاستأذن له في ذلك أستاذ الدار ابن الصاحب فأذن له من شدة بغضهم له ، وأنفذوه في رسالة في طريقه إلى قزل رسلان ، فمضى وأسرع

(١) هو الامام المفسر الفقيه احمد بن اسماعيل بن يوسف القزويني ، المتوفى سنة

٥٩٠ هـ . انظر النجوم ، ١٣٤/٦ .

(٢) عبارة غير مقروءة في الاصل واضطراب النسخ في صحة العبارة من ناحية النحو

يؤيد المعنى غموضاً .

في الخروج ، فعند ذلك ندم الخليفة لخروجه ، وعلوا بعد ذلك أنه لم يخرج إلا المذهب ، وخشوا من التشنيع عليهم في البلاد .

فلما وصل إلى قزل وبلغه رسالة الديوان العزيز قال له :

« أنفذ أنت الجواب فإنني غير راجع إلى بغداد ، وإنني قد شاهدت الموت الأحمر ، ، وتوجه إلى قزوين ، فكان الناس في تلك الخطة بأسرها من الملوك وغيرهم يقصدون رضى الدين القزويني يتبركون به ويهشون به بسلامته

وبقيت النظامية خالية (١٥١) من مدرس ، وفيها جماعة من المعيدين والفقهاء يذكرون الدروس ويقروون الرتبة في كل يوم ، وهم يعتقدون أن رضى الدين يرجع . إلى أن وقع الأياس منه .

وكان الفقيه التوقاني يعتقد أنه ربما أنعم عليه بالنظامية ، وكان كثير الخطاب والقول والاستشفاع بالناس من أرباب الدولة لأجلها ، وكان مستحقا للتدريس والتصدر بجلستها ، غير أن الأمور بيد الله تعالى ، جارية بتقديره .

* * *

وفيها استأذن شهاب الدين الفقيه الطوسي في الحج فأذن له فخرج من بغداد ومضى إلى مصر . وكان قد جعل الحج حجة لخروجه . ولو عُرِف منه ذلك لما مكّن من الخروج ، ولم يؤذن من بعده لأحد في المضى إلى الحج إلا إذا علوا عوده إلى العراق ، وكانت معه ابنة النقي وماتت ، وأخذ جميع ما كان لها ، وسبب ذلك أن أستاذ الدار ابن الصاحب كان ببعضه ويقصده ، ولو بقي في العراق لهلك^(١) لأنه كان صاحب ابن العطار ،

(١) في الاصل « هلك » .

وكان قد حضر ذات يوم في دار أستاذ الدار وقيل له إن علي بن أبي طالب عليه السلام ممالك من الدنيا شيئاً وكان فقيراً حتى إنه كان يأكل خبز الشعير فقال له الطوسي :

« هذا ما يقوله إلا من لا يعرف ، وإلا علي قد نقل عنه أنه أدّى زكاة أربعين ألف دينار ، وكان كثير المال وله نعمه ، وإنما المبغضون له يقولون هذا ، فقال له أستاذ الدار : « فكيف مدح علي بإيثاره بخبز الشعير وبصدقته بالختام ؟ » فقال : « هذا كان في ابتداء حاله وإلا بعد ذلك ملك وصار له ، فقال له أستاذ الدار : « أريد أقف على هذا النقل من قاله وعن ينقله ، فقال له سمديار الواعظ . « إن هذا ما سُمع ، فقال ابن الطوسي : « يجوز أنك أنت ما سمعته ، وطوبأ [ابن الطوسي] بإحضار الحجة ، فخرج حينئذ وهو يعتقد أنه يبرهن عن شيء له فيه مصلحة .

فلما خرج عرف أنه قد خاطر بدمه وأن هذه تكون من أعظم الحجج عليه ، فادعى أنه قد مرض وبقي أياماً (٥١ ب) وأنساهم هذه الحال ، فأنكر علي أستاذ الدار كيف سمع منه هذا وسكت ، وكيف ما كلفه أن يحضر الحجة فيما ذكره عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وصار الأمر أكثر من أن يوصف ، وصار الناس يتقولون بالأخبار عن أهل البيت عليهم السلام ويذكرون أشياء من أمور الصحابة مالا يفيد ذكره لو ذكرناه ، حتى نقل عن ابن الجوزي الواعظ [أنه] قال : « ما أكثر ما يسألون الناس عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم ، ما يكتفون مني في هذه الأيام أنني أرجم لهم أبا بكر وعمر وأنا مخاطر » ؛ وكان الناس في يوم عاشوراء يهجرون الأسواق ويعلنون بالنوح على أهل البيت عليهم السلام والإنشاد ، لا سيما في ناحية المختارة ومحلة السكرخ ، وهذا غلط من ابن المارستانی ، وكانت واقعته في سنة ثلاث وثمانين سنذكرها إن شاء الله تعالى .

وفيهما بذل مسعود بن جابر - الذي كان خازن الخزن وحاجبا بين
يدى ابن العطار - عشرة آلاف دينار ليكون صاحب الخزن المعمور ،
وكان أستاذ الدار قد تغير على ابن شبيب صاحب الخزن ، فتقدم بالقبض
على ابن شبيب والتوكيل به في داره ، وترتيب مسعود بن جابر صاحب الخزن ،
ولقب نحر الدين ، وتقدم إليه أن يسكن في دار ابن العطار التي [هي] مقابلة
لباب الحرم الشريف ، وخلع عليه في دار أستاذ الدار ، والمشراف عليه
ابن رزين ، وكان يومئذ وكيل الخدمة الشريفة يشهد عليه في بيع الأملاك
وشرائها ، ويُسْتَأْذَنُ في تزويج الممالك الخواص ، ويشهد عليه في العتق : كل
ذلك عن الخدمة الشريفة النبوية الإمامية الناصرة لدين الله تعالى .

• • •

وفيهامات الأمير أبو منصور أخو الناصر لدين الله وغسله العدل
بن الحراني وأخذ سلبه يحيى الفرائش ، فكان من جملة ما أخذ منه أثاث
وقاش وفضة يساوي عشرة ألف دينار ، وكان من جملة ذلك (١٥٢)
مسند زركش وطراحة زركش بألف دينار وجميع ما استعمل في غسله من
طلاسة فضة وطست فضة وغير ذلك ، وكان يوم موته يوما مشهودا عظيما ،
ولم يتأخر أحد من أرباب الدولة وغيرهم من كبار أهل بغداد إلا وحضر
إلى الدار العزيزة .

وكانت أيضا ماتت العباسية إحدى جهات المستنصرية بأمر الله وخلفت
أموالا كثيرة ، وبيع ما كان لها من جهاز وأثاث بديوان الأبنية ، وأخرج
لها ثوب كبير الأكام بلؤلؤ كبار وبقباب أيضا عليه لؤلؤ ومداس لؤلؤ ،
وكان المتولى لهذه الأموال أستاذ الدار ابن الصاحب لم يشاركه أحد في ذلك
سوى يحيى الفرائش ، فيأخذ [ابن الصاحب] ما يريد ويمطى ليحيى ما يريد
والخليفة مشغول بمتنزهاته وصيده ، وكان ابن يونس أبو المظفر هبة الله
نائب أستاذ الدار [ابن الصاحب] في ديوان الأبنية ، وجميع هذه الحال يملها

وهو يكتبها عنده، وبعدة لوقت الحاجة ويجعله طريقاً إلى قتل أستاذ الدار، وأستاذ الدار لا يعلم بذلك .

* * *

وفيها تقدم أستاذ الدار ابن الصاحب إلى قاضى القضاة ابن الدامغانى أن يطالب عماد الدين بن رئيس الرؤساء بمال إخوته الأيتام ، فطالبه وأحضره وحبسه ، ثم سأل [العمادُ] أن يُنظر مدة شهرين إلى أن يحصل المال ، وكان أستاذ الدار العزيزة يريد هلاكه ، فنفذ إليه ابن البخارى نائب الوزارة ابن التعاويذى الشاعر وكان يومئذ ينوب عن ابن البخارى فى إقطاعه وهو صاحبه قبل الولاية ؛ وكان ابن التعاويذى غلام بيت رئيس الرؤساء وشاعرهم وبهم عُرف ، وقال له : « قل لعماد الدين يقول لك ابن البخارى خذ لنفسك ، وأبصر لأمرك ، فأنت هالك ، فإن أستاذ الدار ما قصده إلا نفسك وقد جعل المطالعة بمال الأيتام طريقاً إلى إتلاف نفسك ، وقد نصحتك » .

فاعتقد عماد الدين بن رئيس الرؤساء أن ابن البخارى (٥٢ب) قد نصحه بذلك ولم يكن ذلك نصيحاً ، بل نفذ أستاذ الدار إلى ابن البخارى وقال له : « راسل عماد الدين بكذا وكذا بحيث يهرب إلى جهة من الجهات ، ويعرف الخليفة أنهم ما يقدرّون يرون زمانا هو فيه خليفة ، وأنه متى هرب واحد منهم انقلع البيت ^(١) جميعه .

وأن ابن رئيس الرؤساء أخذ هذا الكلام بظاهره ورآه نصيحاً فخرج على وجهه هارباً وعليه صدره خام وتحتة أتان ، وفى رجليه نعلان من صوف ، ومعه رجل صوفى يتخدمه ، ولم يعلم به أحد حتى صار فى بلاد الشام ، واعتصم بالملك الناصر صلاح الدين .

* * *

(١) يعنى بذلك البيت العباسى .

وفيه هرب جمال الدين خشتين من الموصل وجاء إلى بغداد ومعه حدود ثلاثمائة فارس ببرك جميل وتجميل زائد، فوقف عند السكك الجديد عند ظاهر السور، ونفذ صاحباً له يطلب رجلاً متفقاً من أهل حماة كان يلوذ في تلك الأيام بأستاذ الدار ابن الصاحب ، فلما جاء إليه عرفه . أن جمال الدين خشتين قد هرب من أهل الموصل وقد التجأ بالعتبة الشريفة النبوية وهو يطلبك ، فقال الحموي : ما أقدر أمضى معك إلا بإذن من أستاذ الدار ، فقال له : فافعل ، ومضى وعرفه وصول المذكور وأستاذنه في الخروج إليه ، فخرج إليه .

فلما رأى المذكور ترجل له ، وترجل له خشتين وسلم عليه وسأله كيف كان الموجب ، فقال : إني كنت في السنة الحالية - يعني سنة ثمان وسبعين - قد وصلت إلى بغداد في خدمة أتابك صاحب الموصل لما توجهت إلى الحج ومعى جماعة من الأمراء ، وكنت كثير الاجتماع بك ، وكتب الأمراء الذين كانوا معى إلى الموصل يقولون لمجاهد الدين الخادم الذى فى الموصل أن خشتين قد قرر أمره فى بغداد . وأن الوساطة بينه وبين أستاذ الدار رجل من أهل حماة ، فأرادوا القبض على وأخذ مالى فهربت منه ، وقد (١٥٣) أتيت إلى هاهنا على عزم الخدمة بالديوان العزيز . فمضى الحموي إلى أستاذ الدار وعرفه بهذه الحال ، فتقدم أستاذ الدار إلى الحموي بأن يمضى إلى خشتين ويقول له : قد رسم أن تضرب خيمك ظاهر سور بغداد على شاطئ دجلة حتى يعين لك موضع ، ونستأذن الخليفة فى معنك ، فأنزل عند^(١) جامع السلطان ظاهر السور ، وتقدم لحمل إقامة كبيرة إليه فحملت على يد الحموي .

فلما مضى ثلاثة أيام سأل خشتين أن يدخل البلد وأن يقبل الأرض يباب النوبى وأن يدخل إلى الديوان العزيز ، فأخرج إليه الحاجب على صاحب

(١) فى الاصل « من » .

شمس الدين الركاب سلاّر صاحب الخليفة والمتولى اديوان البريد وحديث من يصل من الجوانب، فقال له الصاحب مجد الدين: «أستاذ يسلم عليك ويقول قد أذن لك أن تحضر إلى الديوان في غداة غد، وأمّا تقبيل العتبة الشريفة فمالك بذلك حاجة، لأن الرسل يقبلون الباب الشريف نيابة عن مرسلهم، [و] أنت عنّ تقبل هذه العتبة؟ قد أعفيناك عن هذا»، ثم مضى من عنده وأصبح في ذلك اليوم الذي تقدم إليه فيه أن يحضر ولبس قباء أحمر ياولى نسيج من ثياب أتابك صاحب الموصل، وركب معه جماعته بالأعلام المنشورة والبيارق ومعه خادمان، ودخل في جماعة ومعه الحموى إلى الديوان العزيز، وفيه النائب ابن البخارى.

فلما وصل إلى الديوان ودخل تقدّم إليه وأنّ اجلس على طرف الإيوان الذى فيه مسند الوزارة ساعة. ثم أذن له بالدخول إلى نائب الوزارة، فقام ودخل إلى الستر الأول ففتح جميع من كان معه، ودخل هو والحموى فحسب، وكان النائب جالساً في الديوان في حجرة الصلاة التي على باب بيت الجيش وعنده صاحب الحجاب شمس الدين بن جعفر، فجذبه جمال الدين بيده إلى الأرض ثلاث مرات، فلما قارب أن يصعدوا للصفة قال له النائب: «مرحبا بجمال (٥٣هـ) الدين»، وتحرك إليه فتحول، وجلس جمال الدين خشتين فقال له النائب: «كيف كنت في هذه الحركة؟»، فقام وخدم، فقال له: «طب نفساً»، ثم أخلاه المجلس ولم يبق معه سواه فحسب، وخرج الحموى مع الجماعة ثم قال له: «ما يريد الأمير؟»، فذكر له حاله مع أهل الموصل وأنهم^(١) أرادوا قبضه، ولم يكن السبب إلا محبتي للديوان العزيز مجده الله تعالى.

فقال له النائب: «هذا قد عرفناه؟ نريد أن نعرفنا كم كان لك عند صلاح الدين؟ ولم فارقه؟»، وكيف تريد تكون عندنا بحيث نطالع

(١) في الاصل « وانه » .

الخليفة — خلد الله ملكه ، ومهما تقدم به ^(١) عمل ، فقال له خشتين ؛ د لما كنت مع صلاح الدين كان لى عنده إقطاع بمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار صورية ، فقال له ابن البخارى : « أيتم أو يصح » فقال له : « يصح أكثر من هذا الاعتداد » فقال له : « يا أمير لآى سبب فارقت هذ الحال ، هذا مبلغ كبير ؟ » ، فقال : « غضبت وسببه أننى طلبت منه موضعاً ما أعطانى ، خلقت أننى لا أخدم معه وأنا ما أريد من الخليفة هذا بل ينعم وينقدم إلى أن أمنع خفاجة من هذه الديار ، وأخذ ما تأخذونه ، وأحل إلى الديوان منه والباقي آخذه أنا وجماعى ، وما أريد أن أقول كنت ولا كان لى ، والإنسان ابن ساعته ، وأنا الساعة قد جئت » فقال له النائب : « هذا القدر كبير ، ها هنا ممالك الخليفة أرزاقهم مقررة بقدر حاجتهم حتى إننا نعطيهم من الخزن الخبز واللحم وثياب الصيف والشتاء بقدر ما يحتاجون إليه من النفقة ، وهذا القدر ما يمكن أن يعطى لأحد عندنا ، ولو أن جمال الدين قد رُبى عندنا ما كنا نجد بحقه اصلاح الدين أكثر من أن يحمله إليه يجاهد الكفار ، ومع هذا طيب نفسك . نذكر هذا كله للخليفة ومهما تقدم به عرفتك (١٥٤) على لسان الحموى ، قم الله معك » .
فقام ولم يتحرك له .

فلما خرج قال للحموى : « أما رأيت إلى هذه الأفعال ؟ نجى إلى صاحب عمامة لا يقوم لنا ؟ » فقال : « هذا نائب الخلافة لا يقدر يقوم لأحد إلا بإذن ، فلا تغضب من هذا ولا تتحدث به » ، ثم خرج من الديوان واتى إلى دار أستاذ الدار لجلس على بابها ساعة ، ثم خرج الحاجب أبو الرضا فاستدعاه ، فدخل هو والحموى ، فقام أستاذ الدار قائماً واعتنقه وقال له : « كيف بت وقلبي إليك وإلى تعبك ؟ » فقال له : « يامولانا قد ضاق صدرى من النائب وقد قال لى ما يستحق صلاح الدين بأكثر منك » فقال له : « لا تقف عند هذا ، لو أنك عند صلاح الدين

نفذنا أخذناك منه ، أنت قد جئت إلى بلدك ودارك فلا تقف مع هذا القول ، ، ثم أمره بالرجوع إلى مخيمه وقال . « أنا اكفيك المؤونة في هذا كله ، ، فخرج وهو فرحان طيب القلب من قول أستاذ الدار ، واغتـّـ بقوله وكلامه كما قال الحريري : « هذا كلام كالصبيان وفعل كالصبيان ، ، وأتى خشتين إلى مخيمه وهو كبير الفرح والسرور بقول أستاذ الدار ، فلم يزل في مخيمه أياماً ولا يرى لذلك القول فائدة ولا ثمرة ، ولم يخاطب له بقليل وكثير .

ولما كان بعد أيام نفّذ أستاذ الدار إلى الحموي أحضره بين يديه وأحضر الحاجب عليّاً صاحب الركاب سلاّـر صاحب ديوان البريد وقال له : « تمضي أنت وهذا وتقولان لهذا الكردي أنت تعرف إشفاق عليك ، وأنى أريد مصلحتك ، وأنى قد رأيت لك من المصلحة أن نكتب معك مکتوباً عن الخليفة يكون مضمونه أننا سألناه^(١) أن يخدم الديوان العزيز فلم يفعل وطلب العود إليك^(٢) والشفاعة في حقه ، وقد تقدّم الخليفة بأن تشرف وينعم عليك ، ، فضى الحموي والحاجب عليّ إلى عند خشتين وعرفاه بقول أستاذ الدار ، فضاقت صدره لذلك وقال : « مبارك ، .

فلما مضى الحاجب [٤٥ ب] علىّ قال خشتين للحموي : ما أريد منهم كتاباً^(٣) ولا شفاعة إلى صلاح الدين ، [إن] « أحبّ ما إليه أن أعود إلى خدمته ، ولكن أريد أن تمضي إلى أستاذ الدار وتقول له : « ينعم علىّ ويسأل الخليفة أن يقبل هديتي حتّى أقدم له قيص زرد وثياباً وخيلاً وخادمين ، ، وذكر أشياء .

فضى وعرف أستاذ الدار ذلك ، فكتب بذلك إلى الخليفة فكتب^(٤) إلى أستاذ الدار يقول له : « هذا رجل غريب وضيع ما يجوز أن تثقل عليه فلا تقبل منه شيئاً ، ، فضى الحموي وعرف خشتين ذلك فقال : « مبارك ، أنا أبذل خمسة ألف دينار وأن ينعم علىّ بخلعة سوداء وعمامة سوداء ، وأن ينعم علىّ

(٣) في الاصل « كتاب » .

(٤) أى الخليفة .

(١) أى خشتين .

(٢) أى الى صلاح الدين .

«بكوسات» ، فضى الحموى وذكر ذلك لأستاذ الدار فضحك وقال : « تقول له إن الذى تريد أن تمضى إليه ويُشفع إليه فى حقك إذا رأى أن قد أعطيناك مثل ما أعطيناها ما يطيب له ذلك » ثم قال للحموى : « أنكر عليه هذه الحالة وعرفه الواجب » .

فضى الحموى وعرفه الحل فجعل يوضح نفسه ويلومها كيف أتى إلى بغداد وقال : « ما أقدر أرجع إلى الموصل وهذه طريق لا أعرفها » ، فقال الحموى : « تطلب من أستاذ الدار أن ينفذ معك جماعة من خفاجة يعرفونك الطريق ويمضون معك إلى البلاد الشامية » ، فقال له : « حبا وكرامة » ، فضى الحموى إلى أستاذ الدار وعرفه الحال ، ثم نفذ بعد أيام إليه بالحاجب على صاحب شمس الدين الركاب سلاّر ، ومعه حاجب من حجاب الديوان العزيز يعرف بتاج الدولة بن أبى حرب ومعهما كتاب مخنوم لا يعلم ما فيه ، سوى أنهما قالا : « إنه شفاء من الديوان العزيز إلى صلاح الدين فى حمتك فقم وقبّل الأرض » ، فقام وقبّل الأرض ثم قال له الحاجب : « خذ هذا الكتاب وقبّله واتركه على رأسك » ففعل .

ثم أخرج له من خرقه قباء [١٥٥] أطلس أحمر وقلنسوة زركش ، فقام ولبسهما ، ثم أعطوه نفقة مبلّغها مائة دينار ، وخمس خلع لأصحابه وقيل له : « هذا برسم نفقة الطريق » ، وقد تقدّمنا إلى ثلاثة (١) أمراء من خفاجة يمضون فى خدمتك إلى موضع تختار ، وتكتب معهم تعرفنا إلى أين وصلوا معك ؛ ثم أمر له بسفن عبر بها إلى الجانب الغربى فأقام أياماً ، ثم جاءت الأمراء من خفاجة ورحل من بغداد على طريق البرية ، وكان حيث وصل إلى بغداد معه طبر يسمى الزاع وهو الغراب الصغير ، وكان خشتين إذا مدّ الطبق ينزل هذا الطير من رأس الخيمة ، وكان قد ربّاه خشتين وألفه ، فكان معهم يطير على رؤوس الأجناد ، وإذا تعب نزل على بعض الجمال .

فلما توجه إلى الشام ومعه أمراء خفاجة أرسلوه قريباً من حمص وفارقوه بعد ما خلع عليهم وأكرمهم ، وسألوه أن يعطيهم الغراب فأعناهم إليه ، فجعلوه في قفص ، فلما رجعوا إلى جهة العراق طار الطائر من القفص ومضى ، فلما وصل خشتين إلى ثنية^(١) العقاب ما أحسن إلا والطائر قد سقط عليه ونزل على بعض جمال الرحل ، فتعجب من ذلك ، وكتب بهذه الحال إلى الحموي فأعرض^(٢) كتابه على أستاذ الدار ، فتعجب من ذلك .

وفيهما مات نجر الدولة بن المطلب ، وكان رجلاً صالحاً أوحده زمانه ، وكان مع ذلك زاهداً كبير العبادة ، وكان يعتكف نصف السنة لا يخرج إلى أحد ولا يجتمع بأحد ، وكان كثير المال والأموال والضيايع ، وعمّر مدرسته المعروفة بدار الذهب وسلمها إلى جمال الدين بن فضلان الشافعي ، وأوقف عليها وقفاً حراً ما يكون محصوله في كل سنة ألفاً وخمسمائة دينار إمامية ، وعمّر رباطاً للصوفية مجاوراً لمدرسته ، وأوقف عليه جملة كثيرة ، (٥٥ د) وعمّر جامعاً كبيراً في الجانب الغربي من مدينة السلام وغرم عليه حدوداً من الثلاثين ألف دينار ، وأوقف عليه وقفاً كبيراً ، وجعل الولاية والوصية إلى جلال الدين بن البخاري نائب الوزارة ، وأوقف عدة نواحي وبساتين على ابنته ولم يكن له ولد سواها ، وشرط عليها إن تزوجت لا تستحق شيئاً من هذا الوقف ، وأكد الوصية إلى نائب الوزارة بذلك ، ومحل إلى جامع القصر ، وتقدم الخليفة بفتح له لأن جامع القصر لا يفتح لميت إلا بإذن شريف ، وحضر جميع أرباب الدولة ونائب الوزارة وأستاذ الدار إلى المفصورة الشريفة التي يصلّي فيها الوزير ، وكان أستاذ الدار واقفاً فوقاً

(١) عرفها ياقوت : معجم البلدان ٩٣٦/١ بأنها واقعة في الطريق الواصل بين دمشق وحمص ، أما ابن عبد الحق البغدادي : مراد الاطلاع ٣٠١/١ فقد ذكر ناحيتين بهذا الاسم أحدهما مشرفة على غوطة دمشق بطؤها القاصد إلى دمشق من حمص ، وأخرى قرب المصيصة ، انظر أيضاً : Dussaud: Topographie Hist. de la Syrie,

277. حيث يذكر المحطات الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص .

(٢) : أي عرض .

من النائب، وهذه الحال لم تكن لأحد ممن تقدم من أستاذية الدار أن يترفع على نائب وزارة إلا هذا، لكون المذكور كان غلامه واختياره ونائبه، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [المبارك صاحب] ابن الخل وحمل إلى الجانب الغربي من بغداد، ودفن في جامعته على الطريق من وراء شباك الجامع المذكور.

وكان الناس ببغداد يتأسفون عليه شاكرين لطريقته وحسن سيرته وإعراضه عن الدنيا بعد أن أقبلت عليه لأنه كاف أن يكون وزيراً مراراً، وكان رحمه الله حسن الاعتقاد، كبير الإمدادات لأرباب البيوتات، وكان كبير^(١) والخشونة في الخطاب لأرباب الدولة. حتى إنه حكى عنه أنه كان عنده يوماً وقد دخل إليه نقيب النقباء على الهاشميين يقال له « ابن الروال »، وكان يلقب بأمين الدين، فعثر في ثوبه. فقال له غر الدولة: « أرضداري تأبى أن تدوسها أو تجيء إليها، وأنت ما تنقطع »؛ وكان يعرف ذلك منه ويحتمله.

وذكر أيضاً أنه كان عنده وقد حضر زعيم الدين بن الناقذ وهو حينئذ ناظر الخاص، وكان قبل ذلك حاجب الباب، فسلم عليه وأخذ يشكو من الوقت (١٥٦) وضيقته فقال له:

« والله لو أن الخيوط التي في رأسك تعمل سلسلة في الحسر لبقى ألقى سنة من شدة حماقتك، وإلا لو بعث هذا المقيار الذهب والثياب الذي عليك والممالك والخيل وابست جبة صوف وقنعت وأزلت هذا الحق عنك ما كنت تحتاج إلى هذه الشكوى، واسكن دخان المشاعل ورائحة الشمع إذا تعلق بأم الدماغ لا يزيله إلا ما تعلم، » وكان هذا بمحضر من جماعة.

وكان ابن الناقذ هذا زعيم الدين ذا منزلة عظيمة وصار صاحب مخزن،

وولده هو الموجود شرف الدين [و] هو صاحب المخزن يومئذ، وما كان يقدر أحد من أرباب الدولة ولا غيرهم يقول له هذا القول من شدة تكبره على أهل بغداد ، وكان يقول في نخر الدولة أضعاف هذا ولا يثقل عليه .

وكان نخر الدولة مقبول القول ذا حرمة عظيمة ، وكان الخليفة - أدام الله ظله - يقعده بين يديه ويحدثه ولا يجلس عنده أحد ، وكان يكتب على رأس رقعة إليه « الخادم الداعي » ، ويكتب على رأس رقعة أستاذ الدار « والده » ، وكان لا يمضي إلى أحد جملة إلا إلى الخليفة فحسب ، وما كان يتخلف عن خدمته أحد من أرباب الدولة وكذلك جميع أرباب العلم والأدب والتصوف وسائر طبقات الناس .

* * *

وفيهما تقدم الخليفة بإحضار شيخ الشيوخ بين يديه إلى التاج الشريف فلما حضر قال له : « أقعد نخدم » ، ولم يفعل ، فقال له أمير المؤمنين : « يا شيخ لو قلت لك وأنت قاعد قم كان يجوز لك أن لا تفعل ، نخدم وجلس بين يديه ، فأشار إليه أن يمضي رسولا إلى صلاح الدين ، وكانت هذه الحال من جانب أستاذ الدار ليتشفع إليه في حق صاحب الموصل والكف عنهم ، لأن أستاذ الدار كان كبير الميل إلى صاحب الموصل ، فقال (٥٦ ب) شيخ الشيوخ : « السمع الطاعة » .

فلما انفصل من عنده خدم ، وخرج فنفذ إليه كل ما يحتاج إليه من خيم وخيل وبرك وبغال وفراشين وغلبان ومحفة ، وأطلق له ذهباً كثيراً للنفقة ، فكتب يستعفى من ذلك ، فتقدم إليه بالتوجه ، وتقدم أيضاً إلى بشير^(١) الخادم أن يمضي في خدمته ، فتوجه ومعه جماعة من أصحابه الصوفية وولده عز الدين ، وكان حاجبه زين الدين القزويني ، واستخلف بالرباط ولده الأسن ناصر الدين ، وكان أحسن الناس صورة ، ومضى على ذلك مدة يسيرة ثم رجع ، فأمر الخليفة بإخراج الموكب إلى خدمته

(١) في الاصل : « شريف » وفوقها « بشير » .

وتلقيه. وأن يخرج إليه قاضى القضاة ويلقاه أين كان ، ولا يراعى معه قاعدة فالقصد إكرامه ، فنفذ نائب الوزارة إلى قاضى القضاة وعرفه ذلك ، وأن يركب معه صندل الخادم وجمال الدولة إقبال وجميع الحجاب ، وخرج مع قاضى القضاة جماعة من العدول عليهم اللباس الأسود.

وسار الموكب الشريف ومعهم المماليك الخاص وجماعة الأمراء الكبار ، وعبر العسكر أيضاً معهم إلى الجانب الغربى إلى قرية الشحنة ، فلما وصلوا إلى رأس السويقة وقف قاضى القضاة فقال له عماد الدين صندل : « ما هذا الوقوف هاهنا ؟ نحن قد رسم لنا أن نمضى إلى خدمة الرجل أين كان ، » فقال : « أنا ما أتجاوز هذا الموضع خطوة ، وهاهنا العادة لتلقى الرسل ، وموكب الخليفة — دام ظله — لا يجوز أن يتجاوز أكثر من هذا الموضع ، » فقال له : « ياسيدنا ، أنت تقول هذا والخليفة هو صاحب الامر قد تقدم إلى نائب الوزارة بهذا ؟ » ، فقال : « أنا ما أتجاوز هذا فبينما هما فى المحاورة والتجاذب وإذا بشيخ الشيوخ قد أقبل فتحدّر (١، ٧) إليه من المكان الذى كانوا فيه لأنهم كانوا على نشز من الأرض ، فسلم على شيخ الشيوخ : الأول فالأول ، إلى أن جاء جمال الدولة إقبال فسلم عليه وتعانقا على الحيل ثم تأخر عنه ، وجاء صندل ففعل كذلك ، وجاء قاضى القضاة فسلم أيضاً واعتنقه ؛ وعاد راجعاً إلى بغداد ، فقال له صندل : « إلى أين ؟ » فقال : « نمضى . رسم لنا أن نلقاه وقد لاقيه وسلمنا عليه » ، فقال : « إيش هذا الفعل ؟ أنت تعرّضنا للهلك ، هذا هو العادة فى تلقى الرسل وكذا عادة الموكب الشريف تريد تترك وتقول كلمات [ما] جرت بمثلها العادة ، وتكون أنت واقفاً^(١) والرجل على الأرض ؟ » ، فقال له قاضى القضاة : « أنا ما يجرى بجرأى أحد ولا يجوز لى أن أقول إلا ما يقال لى ، وإنما

ما قيل لى شيء ، إنما قيل لى : تلقى شيخ الشيوخ ؛ وقد لقيته ، فقال الجماعة :
« لا تفعل تهلك . هذا ما يرضى به الخليفة » .

وكثر القول فى ذلك والناس على طبقاتهم قيام ، فقال قاضى القضاة :
« مبارك . أنزل إليه وأقول له كما جرت العادة أن يقال ، فقل له ينزل
قبلى حتى أنزل إليه » ، فضى ابن السلباسى الحاجب وجماعة من الحجاب
الكبار ، فقال لشيخ الشيوخ : « قد استقر أن تنزل حتى ينزل قاضى
القضاة » فقال له : أنا ما أنزل ، وما تقدم بإخراج الموكب الشريف
إلا لأجل وإكراما لى ، ما كنت أنا أريد هذا ، وما ينزل إلا هو ، فجاء
ان المعتمد الحاجب وقال لقاضى القضاة ما ذكره شيخ الشيوخ وقال :
« أنا ما أنزل » ، وأكثر الحديث فضى إلى شيخ الشيوخ وقال : « قد افترضنا
والناس يضحكون علينا ، وأنتما صدرا هذه الأمة من جانب الشرع
والدين ، كيف يسمع هذا عنكما ؟ » وبانغ فى القول وقرر أن ينزلا معا
من غير أن يتقدم أحدهما على الآخر .

ومضى ابن السلباسى الحاجب إلى عند شيخ الشيوخ يعصّده وينزله ،
ومضى ابن المعتمد إلى (٥٧ ب) قاضى القضاة يعصّده ، والناس ينظرون
إليهما والخدم أيضا والماليك والأمراء معا .

فلما نزل شيخ الشيوخ وسار على الأرض رجع قاضى القضاة وترك
رحله فى الركاب واستوى راكبا ، فرآه شيخ الشيوخ فقال : « هذه كانت
حيلة » مبارك ، حسن أنا أمضى إلى بين يدى مركوبه ، وجاء مسرعا إلى بين
يدى بغلة قاضى القضاة ووقف هو وشيخ الشيوخ والناس ينظرون ما يقول
قاضى القضاة فقال : « أمر بإخراج الموكب الشريف لتلقّيك يا شيخ الشيوخ
إكراما لك ، فتقابل ما شئت من الإنعام بتقبيل الرغام ، والله الموفق للإتمام » ، ولم
يذكر سوى هذا ، وركب والناس بأسرهم ركبوا تبعاهما ، وجاء الموكب
إلى باب الحجرة الشريفة واستأذن الخليفة ، فخرج إليه مجاهد الدين خالص
فأذن له ، وكان أستاذ الدار هناك فدخل وجلس على كرسي بين يدى

الخليفة وشرح له جميع ماجرى فى رسالته وأطال ، والناس يتربقون خروجه ويرجعون على قاضى القضاة ابن الدامغانى بالعزل لكونه عرض الموكب الشريف إلى ضحك العوام ، وكيف أنه آذى قلب شيخ الشيوخ مع مكانته من الخليفة ، فخرج شيخ الشيوخ ومضى إلى رباطه ولم يجر شئ ، فنفذ ابن البخارى وأذكر على قاضى القضاة فعله ، فركب قاضى القضاة بعد يوم وجاء إلى شيخ الشيوخ وهو فى رباطه وهناك بمقدمه ، وقال له : « إن أستاذ الدار والنائب قد اتفقا على عزلى ، ويريدون أن يجعلوا لى حجة وتقوا لى للخليفة ، فلما خرجت إلى خدمتك كنت كثر الخوف من أن أعمل مالا يجوز فيكون هو الطريق لهم ، ولا بد من إنعامك فى أن تعرف الخليفة هذه الحال ولا يكون عندك منها شئ ، فقال : « لا والله أنت عندى معذور ، ، وحضر أرباب الدولة يهتنون شيخ الشيوخ بمقدمه سوى أستاذ الدار وابن البخارى (١٤٨) فإنهما لا يقدران أن يمضيا إلى أحد جملة . وكان الخليفة قد أمر بأن لا يعترض أحد اعترض برباط شيخ الشيوخ ولو كان عليه المال والدم ، وكان قد اعترض به جماعة من أولاد رئيس الرؤساء وجماعة من أولاد ابن العطار وابن القبيبي حاجب ابن رئيس الرؤساء الوزير .

وفى مات سديد الدولة ابن الأنبارى كاتب الإنشاء ، وفتح له جامع القصر للصلاة عليه ، وما تخلف أحد من أرباب الدولة خدمة لآستاذ الدار ، وصلى عليه الشيخ أبو طالب [بن الخل] وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر على ساكنه السلام ، وتقدم إلى أبى غالب بن الخلال مشرف الديوان أن يكتب إلى الأطراف ، ولم يكن عالما بالإنشاء بل كان خطه جيدا ، وتقدم إلى ابن البخارى وإلى شمس الدين بن السرخسى أن يتفقا على نسخ الكتب إلى الأطراف ونفذ إلى ابن الخلال ليكتبها ولا يكلف سوى الخط

ولا يتصرف في حرف واحد ، فتقدم إليه بذلك .
وكان موت سديد الدولة ابن الأنباري في ذى الحجة من السنة

* * *

ذكر

ما تجدد للملك الناصر صلاح الدين بمصر والشام وغيرهما من
البلاد من الفتوحات والفزوات في هذه السنة

ودخلت هذه السنة ^(١) والسلطان نازل على آمد ^(٢) محاصر لها مضايقة
على أهلها ، وكان قد نصب عليها جانبين عدة وستائر ومنع الناس من أن يبدؤوا
بقتل رجل من المسلمين ، وكان غرضه أن يستأنسوا ، فدخلهم الطمع حتى
أحرقوا بعض الستائر ، فأنزلهم السلطان ذات يوم بنفسه ، وكان والذي
في ذلك اليوم قد هجم على كل من كان قد طلع منهم فردهم على أعقابهم ،
وهجم الناس في إثره بالسلام ، فصعد فيها الرجال وملكوا بين السورين
وشرعوا في (٥٨ ب) النقب ، و [مسعود بن أبي علي] بن نيسان ^(٣) يجرّض
أصحابه على القتال ، ورمى الناس بالقوارير ، فلما رأى السلطان ذلك أمر الناس
بالمنازلة وحرضهم على القتال ، وأمر بعض أصحابه أن يكتب فضولا على
عيدان النشاب بالإرهاب لمن بآمد من العوام يتوعدهم فيها تارة ويعدم
أخرى ، فقررت عنه مساعدة أهل المدينة وخافوا على أنفسهم ، وكان
[مسعود] بن نيسان فيما بينهم هذه يوم السيرة ، فتقاصروا عن الاستطالة ،

(١) يعنى بذلك سنة ٥٧٩ هـ .

(٢) كان وصوله الى آمد في السابع عشر من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ ، هذا وقد تسلّم
صلاح الدين البلد في العاشر من المحرم سنة ٥٧٩ هـ راجع في تثبيت تاريخ دخولها تحقيق
الدكتور الشيال في مفرج الكرب ، ١٣٤/٢ حاشية رقم ٢ .

(٣) كان صاحب آمد هو محمود بن البكلى وكان شيخا عجوزا ليس له من السلطة غير
الاسم ، اما واقع الامر والتصرف فيها فكان بيد ابن نيسان .

واشتط أصحابه عليه وتقبضوا عنه، فبدا له وجه الخذلان وخاف على نفسه، فراسل السلطان في السلم والاستعطاف له قبل الأمان، فأصبح السلطان ذات يوم والناس على ما هم عليه من المنازلة في الحصار إذ خرج من المدينة جماعة من النساء فقصدن سرادقه مستجيرات بكرمه يسألن الصفع، وكن نسوة أمير المدينة ورئيسها، وطلعن سحرة ذلك اليوم وقصدن خيمة الأجل القاضى الفاضل [وزير صلاح الدين]، فأواهنَّ إلى فناء خيمته، وسعى في الشفاعة لهنَّ إلى السلطان في طلب الأمان، فنشفعن فيما طلبته وأعطين الأمان على أنهم إن أقاموا توفرت عليهم الأموال والأموال، وإن تحوّلوا سهّل عليهم الانتقال، ولم يسألن في البلد لعلهنَّ أنه لا يخفى على من به، وإنما سألن إذا تسلم المدينة أن يخرجوا نفائس أموالهم، فأعطين الأمان أن يخرجوا بكل ما يقدرون عليه من نفائس أموالهم مدة ثلاثة أيام .

وتقدّم السلطان بردّ النساء بالإكرام والاحترام، ونفذ ابن نيسان يذكر أن غلمانه وأصحابه خرجوا عن طاعته وأنه لا يقدر على نقل أمواله، فندب [السلطان] له من خواصه من يعينه ويراعى أمواله، وأخرج له دواب كثيرة من اصطبلاته لإعائته، فخرج ابن نيسان من آمد وضرب خيمته في ظاهرها وجعل ينقل ما يقدر عليه من درهمه وديناره ونفائس جواهره وأمواله، ونقل أيضاً ما قدر عليه (١٥٩) من أواني الذهب والفضة . ولم يقدر في تلك الثلاثة أيام إلا على تحويل الأمتعة الكريمة الثمينة، وفاز جماعة من أصحابه بما أصابوه من أمواله، وكان يخرج من داره عشرة أحمال من المال فيذهب في الطريق بعضها، فلما انقضى الأجل المضروب وقد عجز [ابن نيسان] عن نقل سائر ذخيره ترك أخيراً الذخائر، وكانت أبراج المدينة ودورها ومساكنها^(١) قد ملئت من أجناس الغلات وأجناس

آلات الحروب وغير ذلك من الآهوال ، فترك ذلك جميعه ومضى لسبيله ،
ولو رشد لكان آوى إلى ظل السلطان ولم يبعد عن جنبه .

* * *

ذكر تسليم آمد الى نور الدين (١) محمد بن قرا ارسلان

ولما تسلم^(٢) السلطان مدينة آمد نصب على سورها أعلامه أول يوم
فتحها وذلك في العشر الأول من المحرم من السنة المذكورة ، وأمر بتسليمها
إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وكتب له بها وبأعمالها تقليداً ، وكان
قد سبق له منه الوعد بذلك ، فتسلمها بما فيها من الذخائر من الأمتعة والأسلحة
وآلات الحروب وأجناس الغلات والحبوب مالا يحصره العدد ، وسلم
إليه دساتير^(٣) المخارن سائرها .

وكان في المدينة برج يحتوى على ثمانين ألف شمعة ، فقبل للسلطان :
« هذه آمد فيها ذخائر تربي قيمتها على ألف ألف دينار ، وما دخلت عند
الوعد بآمد في شرط ولا قرار نخذها لمهامك ، ونور الدين محمد [بن قرا
أرسلان] يقنع بآمد فارغة ، فقال [صلاح الدين] : « لا سبيل إلى أخذ
شيء من ذلك ، فإن نور الدين صار من أشياعنا وأصحابنا ، ولا نضن^(٤)
عليه بهذه الأشياء ، وهبنا أنا وهبنا له الأصل وبخلنا عليه بالفرع^(٥) فما يليق
ذلك بكرمنا ،

(١) كانت وفاته في سنة ٥٨٠ هـ ، انظر النجوم ٩٨/٦ .

(٢) أضاف الدكتور الشيال في نشره لمفرج الكروب ، ١٣٦/٢ ، س ٦ - ٩ عن
نسخة أخرى رجع إليها عبارة خلت منها المراجع المتعلقة بهذه الفترة نوردها فيما يلي
لتكتمل الصورة « ولما تسلم السلطان آمد أحضر بين يديه محمد ايكلى الذى كان في
الظاهر صاحب البلد فرآه شيخاً كبيراً فأكرمه وأحسن إليه وأمر نور الدين بالاحسان إليه
وان يقيم عليه ما يكفيه له ولأصحابه ففعل ذلك ، ولم يزل عند نور الدين مكرمًا حتى
مات ، رحمه الله » .

(٣) راجع عنها : Dozy : Supp. Dict. Arabes .

(٤) « تطن » في الأصل .

(٥) راجع مفرج الكروب ، ١٣٦/٢ .

فذكر لنا أنه باع من ذخائرها من الغلات والحبوب والفرش المستعملات الآدمية والبسط والحيام سبع سنين ، وإنما ذكرنا ذلك ليعلم (٥٩ ب) أن الدنيا بأمرها لم يكن لها عند السلطان قدر .

ودخل السلطان إلى مدينة آمد يوم الجمعة وأحضر نور الدين محمد بن قرا أرسلان ووكد عليه المواثيق برعاية العهد والمتابعة له والمشاركة إلى ما يدعوه^(١) . واشترط^(٢) عليه إقامة العدل وإظهار السيرة الجميلة المحمودة في الرعية

* * *

ذكر بعض الأمثلة بفتح آمد ، كتبها السلطان إلى بعض الأمراء :

« صدرت المكاتب مشعرة بفتح آمد وذلك بقتال أعمل السيف فيه أعمال المستبق ، واستعمل فيه العزم استعمال المترفق ، فلما رأى صاحبها غير ما ظنه ، وسوى ما يعهده ، لم ير الغنيمة إلا نفسه وماله وولده ، فاستام الصلح فأرخضناه ، واستأمن فأمنناه بما أخاف وخلصناه ، وأغمدنا ما كان مجرداً ، وأجزأنا الله من نصره على ما لم يزل معوداً ، ورفعنا عنه من القتال يداً ، وأولينا للإحسان يداً ، وكتابنا هذا والمدينة قد فتحت أبوابها ، وعدت بدواتنا أسبابها ، وتحكم لسان علمنا في فم قلعها ، ويسررها عدل نشرها بحصب نجعتها ، وبعد أن لبستها دواتنا وقسينا ، وعدد خاعتها ، والحمد لله الذي تتم النعمة بحمده ، وبسبح الأمل بقصده ، ما يفتح^(٣) الله للناس من نعمة فلا يمسك لها ، وما يمسك فلا يرسل له من بعده . »

(١) راجع الروضتين ، ٤١/٢ .

(٢) « اشريط » في الأصل .

(٣) منظور في هذا الآية الكريمة « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك

فلا يرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » سورة فاطر ٣٥ : ٢ .

فصل آخر

« وقد رُفِعَتْ على قلعتها أعلامُنا ، ونفذت في مدينتها أحكامنا ، ونال صاحبها صلحنا ، وعمَّ أهلها صفحنا ، ووفى فيها موعداً ، ونجح - والحمد لله - مقصدنا ، وألان الله صحتها ، وحطم في ثلاثة أيام صعدتها ، ونحن نستعيد الله من أن يُظن أن لنا في هذا الصنع صنعاً ، وأن نعتقد أننا نملك لأنفسنا ضراً أو نفعاً . »

فصل آخر

« نزلنا عليها ولم يسكن إلا (١٦٠) رياضتها ثلاثة أيام ريثما فتح الحصن عن فضله ، واستيقظ صاحبها بجذ القتال من هزله ، واستأمن فأومن على نفسه وماله وأهله ، وكتابنا هذا ولواء النصر قد مدَّ باعه معانقاً لقلعتها ، وخطيب منبرها قائم باسمنا ساعة تسلمها للدوافقة لساعة جُمعَتها ، ثم أوصلنا نور الدين إلى عقيلة طالما واعدناها أبوه وخطبها^(١) ، وقبلنا منه مهرها بمعونة في سبيل الله أوجبها . »

وكتب بذلك إلى الديوان العزيز بدار السلام كتاباً مستوفى الأقسام ، وأمر الناس بعد ذلك بالرحيل إلى حلب وأعمالها .

وتوجه السلطان من آمد قاصداً إلى الفرات فوصلها في مراحل ، وعبر الفرات بجميع عساكره وجيوشه ، فلما استكمل عبور الناس رحل^(٢) متوجهاً إلى عين تاب ، وكان بها الأمير ناصح الدين محمد بن خمار تسكين ،

(١) يتضمن هذا الكلام الإشارة إلى أن قرأ أرسلان بن سقمان بن ارتق صاحب حصن

كيفاً حاول مراراً عدة الاستيلاء على آمد فلم يتمكن من ذلك .

(٢) في الأصل « عبر » وفوقها « وحل » .

فنزول [ابن خمارتكين] منها وجاء إلى السلطان متبرعا إليه بطاعته ، وحمل من الهدايا والتحف أشياء كثيرة فصار من جملة أصحابه وأسبابه ، فنزل [السلطان] بعين تاب ليلة واحدة ، ثم رحل منها إلى حلب .

• • •

ذكر وصول السلطان إلى حلب والنزول عليها في محرم من السنة

ولما نزلنا على حلب ضرب السلطان مخيمه في الميدان الأخضر وجميع حلقته ، ونزلت العساكر بين قريب منه وبعيد ، وكان الناس كل يوم في زحف وقتال وطراد ونزال ، وكان تاج الملوك أخو السلطان شجاعا مقداما يركب كل يوم بجماسته وينازل القوم ، وكان السلطان ينهيه عن الإقدام ويكفه من النزال ، وينهى الناس عن الزحف ويقول : « إنما مقصودنا البلد ولا حاجة لنا بقتل أحد المسلمين » ، فأصاب تاج الملوك ضربة في ^(١) فخذه فحمل إلى مضربه جريحاً وكان موته فيها وذلك عند تسليم حلب ، وكان السلطان (٦٠ ب) على وليمة قد أعدها لعماد الدين زنكي بن مودود فلم يتضعع له ولمصابه به . رضوان الله عليه .

وسأذكر ^(٢) منقبة للسلطان وما رزقه الله من الحلم والصبر في ذلك اليوم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولما جرح تاج الملوك أمر السلطان عساكره بالرحيل من الميدان الأخضر والنزول على جبل جوشن ف ضرب مخيمه عليه ، وأظهر نية المقام ، وأمر بإحضار بنائين وصناع ومهندسين ، وأمر بحفر أساس قصر بينه وقال :

(١) انفردت النجوم ، ٦/٩٥ ، بالقول بأن تاج الملوك بوري أصابه سهم في عينه فمات

منه بعد أيام على حين أن ابن الأثير ، الكامل ٢٠٢/١١ ذكر أن سهما طعنه في ركبته فانفكت عظام منها ، انظر بعض أخباره في Blochet: Hist. de Makrizi, p. 157, No. 4.

(٢) راجع فيما بعد ص ١٤٤ ، س ٧ - ١٠ .

« إن كان البلد منزلاً^(١) لمن فيه فهذا منزلنا ، ونحن نتصرف في البلاد والأعمال ونقطعها لرجالنا ونترك حلب على ما بها . »

وكان العسكر يركب في كل يوم ويقف بإزاء البلد صفوفاً من غير زحف ولا قتال ، وطال ذلك ودام ، ورسلهم تتواتر إلى السلطان بكل كلام قبيح وهو يحمل ويحلم ويعيد إليهم القول الجميل ، فلم يزالوا على إصرارهم حتى ضرع عماد الدين إلى السلم .

• • •

ذكر رغبة عماد الدين زنكي في الصلح والعوض عن حلب

كان عماد الدين [زنكي] بن مودود راغباً في الصلح عارفاً بعواقب الأمور ففكر في أمره ، ووجد عاياه في كل شهر مما يفرقه على الأجناد ثلاثين ألف دينار ، وخشى على نفسه إن طال الحصار أن يفقد ما في خزائنه ، وكان يعتمد على رأى الأمير حسام الدين طمان^(٢) [الأرتقي] فأحضره واستشار به فيما يدبره من أمر حلب ، فأشار عليه طمان بالدخول تحت طاعة السلطان ، واقترح عماد الدين أن يعوض^(٣) عن حلب سنجار ونصدين والخابور والرقه وسروج ، فضمن له طمان ذلك ، ونزل^(٤) من باب السر ايلاً فدخل

(١) « منزل » في الأصل .

(٢) كان الأمير حسام الدين طمان بمن يميلون إلى صلاح الدين ، انظر في ذلك Blochet: op. cit., p. 197 ، هذا وقد مات في شعبان سنة ٥٨٥ هـ .

(٣) عيب على عماد الدين زنكي بن مودود تنازله عن حلب لقاء أخذه سنجار ، ويذكر ابن الأثير ، الكامل ٢٠٢/١١ ، أن بعض عامة حلب أحضر اجانة وماء وناداه : « انت لا يصح لك الملك وانما يصلح لك ان تفسل الثياب » ، وعنه نقلها ابن واصل في مفرج الكروب ، ١٤٢/٢ ، وان زاد على ذلك ان العامة كانوا اذا راوه صاحوا به : « يا حمار يامن باع حلب بسنجار » ، كذلك ذكر ابو المحاسن في النجوم ، ٩٥/٦ ، ان البعض عملوا في ذم ذلك العمل من جانبه اشعارا كثيرة منها قول بعضهم :

وبعت بسنجار خير القلاع

تكلتك من بائع مشترى

(٤) المقصود هنا « طمان » .

على والدى الملك المظفر رضوان الله عليه وشرح له جميع ما ذكره عماد الدين ،
فمضى والدى (١٦١) إلى السلطان وشرح له ما ذكره طمان ، فقال له :
[صلاح الدين] : « إن هذه المواضع التي ذكرها عماد الدين قد جعلناها
لك مع ما قطع للفرات من الشرق من بلاد الجزيرة ، وأنعمنا بها عليك ولا
سبيل إلى أخذها منك ، فقال [المظفر تقي الدين عمر] : « يامولانا إمض
هذا الأمر فإنما غرضنا صلاح البيت » ، فقال السلطان : « إذا رضيت بأخذ
هذه المواضع منك نعوضك عنها حلب وقاعتها وأعمالها » ،

ثم أحضر^(١) السلطان الأمر طمان وكتب له خطه الكريم بالمواضع المذكورة
وحلف له على ذلك ؛ ثم مضى^(٢) من عنده تمام ليلته فسلم خطه إلى عماد الدين وعرفه .
إنه ام السلطان في حقه ، فطابت نفسه بذلك وأمر بفتح أبواب حلب ففتحت ،
فعرف الأمراء بذلك والمقدمون منهم ذلك ، فتمهم من خجل ومنهم من ندم ،
فأرسل السلطان إليهم وطيب نفوسهم وبذل لهم من إحسانه ما استرقهم به .

وكان تسليم حلب يوم السبت^(٣) ثامن عشر صفر من سنة تسع وسبعين ،
وسأذكر نسكته عجيبة تدل على ذكر منقبة للسلطان ومكرمة لنطق بها سر
الغيب المكنون على لسان القاضي محي الدين بن الزكي قاضي دمشق ، وذلك
أنه مدح السلطان بأبيات منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر

مبشر بفتوح القدس في رجب

(١) جرت مفاوضات تسليم حلب بين عماد الدين مودود والسلطان صلاح الدين في جو
من السرية والكتمان فلم يعلم بها سواهما وسوى الأمير حسام الدين طمان ، حتى اذا
تمت الامور على النحو المذكور بالتنازل افضى عماد الدين بخبر الاتفاق الى امرائه ، فانفذوا
عنهم ومن الرعية عز الدين جورديك وزير الدين بلك .

(٢) أى مضى طمان .

(٣) الوارد في ابن واصل : مفرج الكروب ١٢٢/٢ « سابع عشر صفر » ويلاحظ ان فتح
صلاح الدين لحلب كان من الامور الخطيرة ، وقد ادرك اهميته وما يترتب عليه من نتائج
المؤرخ الصليبي المعاصر وليام الصوري ، راجع

Guillaume de Tyre, op. cit., pp. 1113-1114.

فوافق فتح حلب كما ذكره في صفر من سنة تسع وسبعين كما ذكرناه ،
وفتح القدس في رجب من سنة ثلاث وثمانين .

ذكر وفاة تاج الملوك بوري رضى الله عنه

كان السلطان قد عين يوماً لضيافة عماد الدين زنكى بن مودود ، وأعدّ
له من الألفاف والهدايا والتحف أشياء كثيرة ، وكان ذلك في الخيم قبل
انتقاله إلى حلب واستقراره بالقلعة ، فدالسماط واستدعى بعمادالدين فجلس
إلى جنب السلطان ، فبينما الناس في (٦١ ب) أسرّ سرور إذ جاءه بعض
حجابه فأسرّ إليه بنعى أخيه تاج الملوك ، فما تضعع لذلك ولم يتغير بشره
وبشاشته وطلاقة وجهه ، وأمر سرّاً بتجهيزه ودفنه ، وأعطى تلك الضيافة حقّها ،
فانظر إلى حلم هذا السلطان وحسن صبره على بلائه واختبار الله تعالى إياه .

وأما عماد الدين زنكى بن مودود فإنه أخذ خط السلطان بالمواضع
المذكورة^(١) بعد عهده وميثاقه ، وخرج بعد وداعه متوجّهاً إلى سنجار ،
وأقر مظفر الدين بن على كوجك على ما بيده من حران والرها .

ذكر دخول السلطان إلى حلب ومقامه في قلعتها

كان دخول السلطان إلى قلعة حلب يوم تسليمها إليه وذلك يوم السبت
ثامن عشر صفر ، وحين استقر بها أفاض العدل ورفع الضرائب وأسقط
المكوس ، وتم له حينئذ ملك الشام ، وكتب إلى الأطراف والجوانب لاجتماع
العساكر إلى الجهاد ، وعرّول في الحكم والقضاء بحلب على القاضي محي الدين

(١) وهى سنجار ونصيبين والخابور والرفة وسروج : راجع ما سبق ص ١٧٤

أبي المعالي محمد بن الزكي^(١) على القرشي قاضي دمشق فقضى وحكم ، ورتب له فيها نائباً القاضي زين الدين نبأ^(٢) بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي .

* * *

ذكر فتح حارم (٣) وسبب تسليم حصنها

ولما فتح السلطان حلب واستولى على ما حولها من الحصون والمعقل والأعمال بقيت قلعة حارم مع أحد^(٤) المماليك النورية ، فجعل السلطان يرأسه وهو يشترط عليه ويغالي في سومه ، وكان نقيبها حينئذ مستولياً عليها ومعه جماعة ، فخرج مملوك نور الدين عنها — كما جرت عادته — راكباً ، فغلق نقيبها دونه الباب ، وشنع عليه بمصالحة الفرنج وأعلن من فيها باسم السلطان ، فبلغ السلطان ذلك فركب من وقته (١٦٢) وسار إلى حارم فتسللها ، وحضر النقيب الذي كان بها وجماعته ليطلبوا من السلطان أن ينعم عليهم عوضاً عما فعلوا .

وكان بدر الدين حسن بن الداية^(٥) حاضراً عن السلطان فقال :
« يا مولانا ، هؤلاء القوم فعلوا في حق كذا وكذا ، وخربوا بيتي ، ونقلوا عني

(١) كانت وفاته سنة ٦٦٩ هـ ، ويلاحظ انه أصبح أثيراً عند التتار عامة وهولاكو خاصة راجع المقرئى السلوك ، ص ٤٣٩ ، ٥٨٩ . راجع ترجمته في ابن طولون : قضاة دمشق ، ص ٥٢ - ٥٥ .

(١) ذكره المقرئى : السلوك ، ٨١/١ باسم « ندا » ولكنه وارد بالصورة اعلاه في ابن الاثير : الكامل وابن واصل : مفرج الكروب ١٤٧/٢ ، انظر ايضا الروضتين ٤٧/٢ .

(٢) حارم حصن حصين وكورة تجاه انطاكية من اعمال حلب ، انظر ابن مبدالحق : مراسد الاطلاع ٣٧١/١ ، Dussaud: op. cit., p. 231.

(٤) واسمه « سرخك » ، انظر شفاء القلوب ، ورقة ٢٨ ب ، وابن الاثير الكامل ٢٠٢/١٦ .

(٥) هو صاحب حارم وعينتاب وامزاز .

كل كلام قبيح ، وقد علمت ما فعلوا في حق هذا المسكين وأغلقوا دونه باب القلعة وشنعوا عنه ما ذكره من مصالحه الفرنج ولم يكن كذلك ، فإن رأى مولانا السلطان استخدامهم على هذا الشرط فليستحفظ بهم ، فضحك السلطان وأمر بطردهم وسلمها إلى أحد خواصه .

...

وأما حديث صاحب أنطاكية فإن السلطان حين تسلم حارم اضطرب أمره ، ووافق ذلك أو انقضاء الهدنة ، فجاءت رسله بالخضوع والضراعة إلى السلطان ، وسير معهم من أسارى المسلمين جماعة كبيرة إليه ، وانخذل الفرنج في جانب القدس خوفاً منه ، وبدأ السلطان في تقرير الأماكن والقلاع وترتيب أحوالها .

...

ذكر القلاع ومن رتب فيها

أما قلعة حلب فإنه جعل فيها سيف الدين بازكوج واليا ، وولى الديوان العميد ناصح الدين اسماعيل بن العميد .

وأما عين تاب^(١) فإنه أبقاها على صاحبها ، وأنعم على بدر الدين دلورم الياروق بتسل خالد^(٢) مضافاً إلى تل باشر قضاءً لحق مسابقته إلى الخدمة .

وأما عزاز فإن عماد الدين زنكي كان قد أخسرها لتوفر قوته على حفظ حلب ، فإنه^(٣) أقطعها للأمير علم الدين سليمان بن جندر^(٤) ، وشرع

(١) عرفها ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ٩٧٧/٢ بأنها قلعة حصينة ووستاق قرب حلب وأن رستاقها دلوک .

(٢) تل خالد قلعة من نواحي حلب ، مراصد الاطلاع ٢٧٠/١ ..

(٣) الضمير هنا عائد على صلاح الدين .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٤٧/٢ .

[صلاح الدين] في إظهار العدل وإزالة المظالم، وكتب المناشير لأهل حلب برفع الضرائب والمكوس، وجاءته كتب الأطراف والجوانب بالتهنئة له بفتح حلب.

* * *

ذكر (٦٢ ب) فصول مختصرة من كتب أصدرها السلطان الى
الأمنار والجوانب مبشرا بفتح (١) حلب وتملكها

فصل من كتاب إلى خطيبا والى زبيد يذكر فيه فتح حلب، من إنشاء
العماد السكاك الأصفهاني :

« وأما أحوالنا فقد تناسقت في النصر، وتناست في حمد الله تعالى
والشكر، وقد سبقت المكاتبات إليك في شرح ماشاء الله من الفتح
وسببه، وقرّبنا من الأمور وهذبه، فبلاد الجزيرة قد استقرت
في خدمتنا عساكرها، ودانت لطاعتنا أكابرها؛ وأمر فيها أمراؤنا؛
وولى بها أولياؤنا، وأصبح ربضها إرضاء أصحابنا، وانصرفت نوابها
بتصرف نوابنا، وعنى ذوو عنادها؛ وساد ذوو سدادها. ونجدنا
كرامها؛ وأكرمنا أمجادها؛ وروّضنا بالائتاء مواصلها فما ضرها أخفها
الحيا أم جادها، وديار بكر لما قصر آمد أمدها؛ وطالت يد أيّدنا بالطول
في معاهدة تعهدنا وفتحت سوداؤها؛ واخضرت بركات أقدامنا في
الإقدام غبراؤها؛ بعدما اغبرت من مثار النقع عند نزولنا عليها خضراؤها،
وسكنت دهماؤها؛ وانكشفت غمّاؤها، وصحت سماؤها، وصحت أسماؤها؛
ووطى بساط الخدمة ملوكها الصيد، وأقرّ بالعبودية لنا أحرارها الصناديد،
وجئنا إلى حلب [ف] أسرجت لنا وألجمت شهابها. وزينت لترف
علينا حسناؤها، وأقامت بعذر خفرها في تمنّعها عداؤها، ودانت لأرضنا

(١) فيما يتعلق بأهمية فتح حلب ونقد ير وليم الصوري له وخطورته على موقف

الفرجة عامة وتأييد القوى الصلاحية انظر

Runciman: Hist. of the Crusades, II, p. 435 & note 3.

بني أرجائها سماؤها ، وتحقق في عرفنا رجاؤها ، وأرجت بعرفنا أرجاؤها ،
وظهر حقها ، وخفي باطلها ، وترويض ماحلها ، وتحلّتي (١٦٣) عاطلها ، وعقل
جاهلها ، وغنم عاقلها ، وانتظمت في سالك الممالك حصونها ومعاقلها ، وانضمت
إلينا عساكرها ؛ واستفاضت بنا مفاخرها ، وأطاعت عواصي عواصمها ،
وامتثلت المغاني بمغانها ؛ وظهرت المعالي في معالمها ؛ ولم يبق إلا التوفّر
في الجهاد من سائر الجهات ، وانحاز غزوات الله في النصر على العداة ، والسعي
في تملك القدس وافتتاحه ، وتحصيل مراد الإسلام والنزول على اقتراحه .

• • • فصل من كتاب آخر

« ولما تسلبنا حلب وتسنّمنا قلعتها وفرعنا شهباءها ، وسكّنا دهماءها ،
وباكّرناها بالإيلاف فألفيناها على البكارة ، واجتلبنا عروسها أفقية الإنارة ،
وروضية النصارة ، وزُفت إلينا بحسنة لم [يغلها] المهر ، وعقيلة ألاتها لنا الدّهر ،
فقرّاً بنا سرير السرور ، وصفي لأهلها حبير الجبور ، وتأصلت فيها أروقة
الأمور ، وتوالت النعم من الله عزّ وجل في وفود الوقور ، وتبلغ صبح
اليُسّر ووجه البشر بالإسفار والسفور ، وغضّ الظلم طرفه ، وكفّ
العسف كفه ، وقبض الجور يده ، وأوضح العدل جده ، وحطّ الحظ
لثامه ، وأخذ الأمر نظامه ، ووجد الشرع أحكامه ، وانجابت الظلماء وطلعت
الشموس ، وانفرجت الغمام وطابت النفوس ، وأسقطت المظالم وأطلقت
المكوس ، واهتزت الأعطاف من سكر الشكر حين طافت من أطاف الله
على الأمة الكنوس . »

• • •

فصل من كتاب آخر

« صدرت المكاتبة مبشرة بما من الله به من الفتح العزيز ، والنصر
الوجيز ، والنجح الحريز ، والموهبة الواهبة قوة الاستظهار ، والعارفة المعرفة
زيادة الاستنصار ، والنعمة التي تجلّت النعماء لجلّت ، وحلّت في مذاق

الشكر وحلّيت ، وعلت بإعلاء كلمة (٦٣) الدين فأنهلت وعلّت ، وطالت يدها بالطول وبأياديها أطلّت ، وذلك فتح حلب الذى در حلبه ، ونجح طلبه ، وبلغ أمد الفلح غلبه ، ووضع لحب هذه الدولة القاهرة - لحبّه ، فإنه قد سكنت الدهماء منذ سكنت الشهباء ، ونشرت بها بالأمس أختها السوداء ، لما كان لنا فى فتحها اليد البيضاء ، فاخضرت الغبراء ، وآلت ألا نعبر بعدها إلا فى سبيل الله الحضراء ؛ وتلاها فتح حارم الذى انجلت به الداهية الحمراء ، وعلت بالعواصم لقمع بنى الأصفر رايتنا الصفراء ، واهتزت طرباً إلى الجهاد فى أيدي شائميها ومعتقلها البيضاء والسمراء ، فقد زال الشغب ، وأسفر عن الراحة التعب ، وخمد اللهب ، وأخذت الغزاة الأهب ، وشفت غيمة الرأى بالمدى حلب ، وقد اتحدت كلمة الإسلام وعساكره ، وصدقت زواجه ، ورحبت بالتنقل فى الأسفار متاجره ، والحمد لله الذى ضاعف المنة ؛ وأضعف عن شكرها المنة ، وشمل بالآلفة الشمّل ، وأفضل بظهورنا ، وأظهر الفضل ، .

...

فصل من كتاب عن السلطان الى بعض امرائه بانشاء الفاضل

• صدر إليك هذا الكتاب والأوامر بحلب نافذة ، والرايات بأطواق ، قلعتها آخذة ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، وقد بلغوا ما كانوا يؤملون ، وأمنوا ما كانوا يحذرون ، والحمد لله على هذا المصير ، وعلى ما منّ به من هذا الطول الطويل فى الزمان القصير ، ونحن نستنصر بالله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

...

فصل من كتاب آخر من انشاءه

• إن الله سبحانه يسوق مقاديره إلى مواقيتها ، ويؤلف من قلوب أهل طاعته على طواغى الكفر وطواغيتها ، ويتم ما سبق فى مشيئته من جمع كلمة هذه الأمة وتآليف مشيئتها ، ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به (١٦٤) من فتح

مدينة حلب سلباً سافر فيها وجه الإسلام ، ورق قلعتها سلباً بمشيئة الله تعالى إلى دار السلام . .

...

ذكر ورود بشارة الى السلطان وهو بحطب وردت عليه
من مصر تبشره بظفر أخيه الملك العادل أبى بكر
بطائفتين من الفرنج : بحرية وبرية

اتفق ورود هذه البشارة من مصر إلى السلطان عند فتح حلب تبشره بظفر الأسطول البحرى وظفره ببطسة من الفرنج ، وذلك أنه نهض^(١) مغيراً أفعاد بعد تسعة أيام وقد ظفر ببطسة من الفرنج فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجاً من الفرنج، فأسروهم جميعاً وأتوا بهم إلى مصر . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من محرم من السنة المذكورة .

وأما الظفر الثانى البرى وذلك أن عصابة من الفرنج الذين كانوا بالداروم^(٢) وكانوا لا يزالون ينهضون إلى أماكن بعيدة ومواضع شاسعة يرومون غفلة من بها لأنهم وبعدهم عن ديار الشرك ، فنهضت منهم طائفة صغيرة ، فاقصص خبرهم بالملك العادل سيف الدين أبى بكر أيضاً ، فأنهض إليهم جماعة من أبطال المسلمين وجماعة من أصحابه ، وقدّم عليهم سعد الدين كمشبه وعلم الدين قيصر وسيّرهم نحوهم ، فتوافى الفريقان إلى ماء يعرف بالعسيلة سبق الفرنج إليه فلكوه ، فلما أقبل المسلمون - وقد اشتدّ بهم العطش - ترجّل الفرنج وآووا إلى جبل هناك يعتصمون به ، فحمل المسلمون عليهم جملة واحدة فقتلوه عن آخرهم ، ولم ينسج منهم إلا رجلاً ، ورجع

(١) كان ذلك فى سنة ٥٧٩ هـ ، ولم يحدد السلوك ٨٠/١ موضع هذا اللقاء الحربى على ان جعل قدوم المنتصرين بالاسرى الفرنج الخامس من المحرم ، ولعمل قول المخطوطة « الخامس عشر من محرم » اشارة الى ورود الخبر على صلاح الدين .
(٢) الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر وقرية من البحر ، انظر ياقوت : معجم البلدان ٥٢٥/٢ ، ٥٣٧ ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٥٠٨/٢ .

المسلمون بمرؤس عدوهم إلى مصر ، وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من محرم من السنة المذكورة (١) .

* * *

ذكر رحيل السلطان من حلب إلى دمشق

ولما رتب السلطان أمور حلب وأعمالها وذلك (٦٤ ب) بعد مهادنة صاحب أنطاكية ودخوله تحت أوامر السلطان وضراعه ، لذلك أمر عساكره بالرحيل ، وكان في جمع جمّ وعسكر كثير ، واستصحب معه عساكر الجزيرة وحلب ، فكان أول منزلة نزلها بمحاضر قنسرين (٢) حتى تكاملت العساكر ، ثم رحل إلى تل السلطان ومنه إلى الحجاب .

ثم رحل الناس متفرقين ، منهم على طريق المعشيرة ومنهم على طريق يمنع . ولما وصلنا إلى حماة أمر والدى الملك المظفر بإحضار سماط اضيافة السلطان ، وأسبغ من إحسانه على جماعة من الأمراء والأجناد ، ورتبنا أحوال حماة ورحلنا منها فنزلنا الرستن (٣) ، ثم [رحلنا] إلى حمص ف ضرب السلطان مخيمه على عاصيها ، ورحل منها فنزل الزراعة ثم إلى اللبوة ، ورحلنا منها فنزلنا بعلبك ، ثم رحلنا منها متوجهين إلى دمشق فنزلنا قريبا منها ثم توجهنا إليها وخرج أهلها للقائنا ، ودخلنا إلى دمشق وقد استبشر الناس لقعودنا ، فلم يلبث السلطان بدمشق سوى يومين ، وأمر الناس بالخروج إلى الجهاد لغزاة بيسان .

(١) أورد المقرئى : السلوك ٨٠/١ - ٨١ خبر النقاء المسلمين بالفرج عند الداروم في أقل من سطرين ، وعبارة المقرئى رغم قصرها - تكاد تكون عبارة المؤلف في المتن .

(٢) بكسر القاف وفتح النون أو كسرهما مع التشديد ، وهى مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، وقد ذكر ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ١١٢٦/٣ أن الروم لما غلبوا على حلب في سنة احدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قلسرين وجلوا عنها ، ولم يبق بها الا خان تنزله القوافل ، انظر أيضا ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، (ط . دى خويه) ص ٧٤ ، والقدسى : شرحه ، ص ١٩٠ ، Gaudefroy-Demonbynes : La Syrie , p. 10, n. I. à l'époque des Mamelouks.

(٣) بليدة بين حمص وحماة ، كانت على نهر العاصى ، انظر ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ٦١٥/٢ . وانظر أيضا Dussaud : Topographie de la Syrie. p. 146, note 3

ذكر غزاة بيسان

كان سبب رحيل السلطان من دمشق اغتناما لمن كان معه من العساكر ، فسار بعساكره مجدأ في سيره منزلاً منزلاً إلى أن قطع الأردن^(١) ، وكان عبورنا في مخاضة الحسينية^(٢) وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة ، فلما وصلنا إلى بيسان^(٣) وجدناها وقد أخلاها أهلها وخرجوا منها خوفاً منا ، وكان قد تقدمت مقدمتنا فوقعت على خيل ورجل من الفرنج ، وكان مقدمهم ابن هنفري فأوقعوا بهم ، فقتلوا راجلهم وأسروا جماعة من فرسانهم ، وفر ابن هنفري .

ووصل الخبر بأن الفرنج الملاحين قد جمعوا فرسانهم وأنهم ناهضون إلينا ، فبينا نحن كذلك وإذا جموعهم قد أقبلت ، وكانوا (١٦٥) في ألف وخمسمائة ربح ومثلهم ثمر كبل^(٤) وخمسة عشر ألف راجل مائة عدد الكاملة ، فلما قربوا منا رجفوا كالأسود الضواري ، فنبذنا إليهم الجاليشية^(٥) فجالت أمامهم وعبئنا الأطلاب .

فلما رأى الفرنج عساكر الإسلام داخلهم الرعب وأخذوا إلى الأرض ، والتجأوا إلى الجبل وجعلوه ظهرهم ، وخندقوا حوله خندقاً ، وأقاموا على ذلك

(١) وذلك في تاسع جمادى الآخرة ، راجع ابن الأثير : الكامل ٢٠٤/١١ .

(٢) الأرجح ان المقصود بها مخاضة الحسينية على نهر بردى ، راجع Sauvare: Description de Damas, II, p. 60.

(٣) بفتح الباء وسكون الياء ، مدينة بالاردن بالفور الشامي ، وبها عين فيها ملحوة يسيرة تعرف بعين الفلوس ، راجع : ياقوت معجم البلدان ٧٧٨/١ وابن عبدالحق : مراسد الاطلاع ٢٤١/١ ، وانظر : Dussaud : op. cit., p. 348, et n. 6; Blochet: Hist. d'Egypte de Makrizi (R.O.L.) p. 158, note 3.

(٤) الضبط من مفرج الكروب ، ١٤٩/٢ وتنضح من تحقيق الدكتور الشيال شرحه حاشية رقم ١ ، ان التركيبي مصطلح بيزنطي كانوا يطلقونه على افراد فرقة تركية الاب او هوبيته يونانية الام ، راجع ايضا حبشي : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس .

(٥) أى مقدمة الجيش .

خمسة أيام آخرها يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة في أضيق حال يتوقعون نزول الهلاك بهم ، ونحن نتوقع في كل يوم منهم الحملة التي هي عادتهم ، والمغبرون من أصحابنا في كل يوم يشتنون الغارة في بلادهم فيغذمون ويسبون ويقتلون ويأسرون . فلما رأيناهم لا يرحون ولا يحملون رحلنا عنهم ، فاشتد راجلهم لكي يحملوا فرجع عليهم ، وكان ذلك يوم الخميس سادس عشر الشهر المذكور ، فاصدقوا حتى خرجوا من موضعهم منهزمين على أعقابهم يتبع بعضهم بعضاً ، ورجعنا ظافرين بغنائمهم ومن أسر منهم ، وشرع السلطان من وقته ذلك في غزاة الكرك .

• • •

ذكر غزاة الكرك

ولما رجع السلطان من غزاة بيسان منصوراً غانماً جعل طريقه إلى جهة باب من أعمال الشراة^(١) ونزل بأذرعات . واستأمن إليه أهلها المسلمون فأمنهم ، وكان ساكو تلك الديار مسلمين من قديم الزمان وترى أولادهم مع الفرنج .

ثم خيمنا على البرية ، وضائق تلك الأودية بالعساكر ، ثم نزلنا على حصار الكرك وأمر السلطان بنصب المجانيق فنصب ، فرمينا من بها بالحجارة وطال ذلك ؛ ثم تحول السلطان إلى الرض فنزل بدار الرئيس وحرّض الناس على الجهاد ، وكان غرضه بالانتقال إلى هنا ليقرب من

(١) اكتفى ابن عبد الحق : مرصد الاطلاع ٧٨٨/٢ في تعريفها وتحديدها بقوله « صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول » ، أما اذرعات (بفتح الهمزة وسكون الدال وكسر الراء) فقد عرفها أيضا بانها « بلد في طرف الشام وتجاور ارض البلقاء » على حين اسهب Dussaud: op. cit., p. 325 في وصف موقعها على الخرائط الجغرافية القديمة وأهميتها التاريخية .

المنجنيقات (٦٥ ب) المنصوبة لبشاهد مواقع النكاية في القلعة ، ورتب السلطان مع ذلك نوبة الرماة ، فما كان أحد يقدر أن يخرج رأسه من بين الشراريب ، فبينما نحن كذلك إذ وصل الخبر باجتماع الفرنج في الموضع المعروف بالواله ، فقال السلطان : « هذا حصر بطول ، وقد ضايقنا الحصن ومن فيه وسلبنا أعماله ، وهذه نوبة لا يخشى فواتها ، وما زال بعون الله تعالى نعاود هذا الحصن ونزوره حتى يسّر الله فتحه ، والآن فإن الفرنج قد تحاشدوا واجتمعوا فلا يفرق جمعهم إلا جمعنا . وبقي الحصار دائماً إلى انقضاء شهر الله الأصب رجب ، والسلطان مع ذلك مشغول بعمارة البلاد وتدير الممالك ، وذلك عند وروده إلى الكرك استدعى أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر من مصر ليعول عليه بولاية حلب ، ويقلد والدى الملك المظفر — ابن أخيه — ولاية البلاد المصرية .

* * *

ذكر ولاية والدى الملك المظفر — رضوان الله عليه مصر وأعمالها وتقليده إياها

ولما وصل الملك العادل من مصر إلى الكرك طلب من السلطان ولاية حلب^(١) وأعمالها وقد سبق وعد السلطان بها لوالدى فأنعم السلطان لأخيه بحلب وأعمالها ، وأنعم لوالدى — ابن أخيه — بولاية الديار المصرية وحكمه فيها ، والذى أعطى والدى الملك المظفر — رحمه الله — بمصر ، فمن ذلك : البحيرة جميعها بمصر وهى بأربع مائة ألف دينار ، والفيوم وهو بثلاثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار ،

(١) راجع رواية ابن ابى طى في الروصتين بشأن رغبة العادل في ولاية حلب .

ثم عُوض^(١) عن بوش بسمنود والواحات وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحواف رمسيس وهو بثلاثين ألف دينار ، وكان له فى كل شهر على الاسكندرية ألف وخمس مائة دينار ، وحكمه على جميع مصر (١٦٦) والولاية بأسرها وصرّفه فيها تصرف الممالك ، وكتب له بذلك تقليدًا ، وذلك فى شعبان من السنة .

وهذه نسخة المنشور :

الحمد لله المتعالى جلالة ، المتوالى أفضاله ، القديم كما له ، العديم مثاله ، نحمده على إحسانه : العظيم نواله ، العميم اتصاله ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى الفصيح مقالته ، الفصيح فى الشرع مجاله ، الشفييع المقبول فى الأمة سؤاله ، وعلى آله وصحبه الذين هم نجوم الهدى ، وأنصار الحق ورجاله . أما بعد فإننا منذ استودعنا الله ملك بلادده ، واسترعانا أمر عباده ، ومكن لنا فى الأرض . وبسط أيدينا بالبسط والقبض ، وأقدرنا فى ممالكه على العقد والحل والإبرام والنقض ، وملّكنا زمام الزمان بالأمر والنهى ؛ ونهّج لنا وبنا سبل الرشاد وعنى طرق الغى ؛ وناط الهدى بتوفيقنا ؛ وأماط الضلالة عن ملكتنا ، فهو الإحكام وهى الوهى ؛ وأعز بنصرنا الإسلام وأداله ، وأذل الكفر وأزاله ؛ وثبت الحق ومكنه ونفى الباطل وأزاله ؛ نفترض أداء شكر نعمته وإن كنا معترفين بالقصور عن أدائه ؛ ونزعى له فى بلادده وعباده حق ما خصنا به من عموم استرعائه ؛ فلا يسترعيا من

(١) الوارد فى ابن واصل : مفرج الكروب ، ١٥٢/٢ ، ان صلاح الدين زاد فى اقطاع تقي الدين ابن اخيه : « القبايات وبوش » على أن رواية الروضتين تتفق مع النص أعلاه . فيما يتعلق ببوش فقط . هذا ويلاحظ ان العبارة من « البحيرة جميعها .. » الى .. حواف رمسيس وهو ثلاثين ألف دينار » واردة فى هامش على ورقة منفصلة فى احدى نسخ السلوك التى رجع اليها الدكتور زيادة فى نشره للسلوك ، ٩١/١ ، هامش رقم ٢ وهى مطابقة فى الفاظها لعبارة المتن مما يحمل على الظن بان المقرئ استعمل نسخة المضمار دون الإشارة اليه .

الولاية إلا أولاهم برعاية الرعية ؛ وأكرمهم للتقوى التى تقوى بها المسكارم
وتوقى المكاره ، وأحكمهم فى الرأى الذى يصح ويصح به فى الأمور
المحكم والمشابه ، وأقومهم على سنتنا على إقامة فروض العدل وسننه ،
وأعرضهم بحق إنعامنا فى تقبل منحه وتقلد منته ؛ وأطولهم فى الطول باعاً ؛
وأفضلهم اتساقاً فى المنائح واتساعاً ، وأسماهم فى بقاع العلى ارتفاعاً ، وأولاهم
لأبكار المحامد والمفاخر افتراحاً ، وأجلاهم فى مشارق السعادة طلوها
(٦٦ ب) وأجلهم على واجباتها اطلاعا ، وأبذلهم فى الجهاد اجتهاداً ،
وأكثرهم فى سداد النغور الإسلامية سداداً ، حتى تعود الولاية بإيالته
منتظمة العقود ، والمملكة ببهجته مبتسمة السعود ؛ والسياسة بنضرة نظره
مورقة العود ؛ والمصالح بصوب صوابه مصوبة المعاهد ، وتصل النصر
بمضاء مضاربه مغموداً فى مفارق الأعداء مفارقاً للغمود ؛ وتمحو أيا منا البيض
بتواليته سينات الليالى السود ؛ ولما كان ولدنا لأجل المالك المظفر تقي الدين -
أدام الله علوه وضاعف رفعته وسموه - ذا المجد الشاخص ، والجسد الباذخ
والرأى الراجح الراسخ ؛ والعدل المجير المحيى استصراخ الصارخ ، والإصابة
التي تقصر عنها خطى الخطوب الخاطية ، والقدرة المتوالية التي لديها العظام
ذوات الأقدار المتواطية ، والشيمة الزكية الذكية التي تضوع نشرها المتأرجح ،
وتوضح نشرها المتبلج ، وشيم عارض كرمها المتوج ، ورجى بحر سماحها
المتموج ، والمناقب التي أشرقت زواهرها فى سماء السمو ، وألقت أزهارها
فى رياض النمو ، وتليت آيات مدائحها بلسان العدو ، وجلبت عرائس محاسنها
فى مطالع العلو ، والبسالة التي فرق جموع الأعداء بأسها الشديد ، وثلم حد
الكفر حدها الحديد ، وأعلى جد الإسلام جدّها الجديد ، وهد ركن المنكر
ركن عرفها المشيد ، وهو مقتدي بسنتنا العادلة فى إحياء سنة العدل ، وتقوية بنية
الفضل ، ورفع منار الشرع المنير ، وأعلى معالم المجد الأثيل الأثير ، وخفض
جناح الرحمة للصغير والكبير ، وإسعاف العافى وإعانة العانى وإغاثة المستجير ،
وقلدناه ولاية (١٦٧) الممالك والبلاد والثغور والديار المصرية ، وعذقناها

بكفائته ، وأوليناها النظام بولايته ، حلينّاها بحليّة إيمانه ، وعمولنا عليه سياسة مملكتها ، وحماية حوزتها ، والذب عن بيضتها ، وفوضنا إلى نظره أمورها ، وجلونا في آفاق تدبيراته الموافقة الموفقة نورها .

«وأمرنا كافة الأمراء والنواب والعساكر المنصورة المصرية على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم بامثال أمره والانقياد لحكمه ، والتصرف على رسمه ، والحضور إذا طلبهم ، والهبوب إذا ندبهم ، فإنّا عضّدنا به سلطاننا ، وأمضينا سيفه — إذا اقتضته حدود الله تعالى — في الآجال ، وأطلقنا قلبه في الأرزاق التي يجيزها الله تعالى لكافة الأولياء والرجال ، وفوضنا إليه هذه البلاد تفويضاً ماضياً أحكامه ، متسق نظامه ، موصولة بشيئة الله تعالى أيامه ، ووليّاه إياه تولية من قد عرف قيامه بحق الولاية ، وانتهاه في مصالح الإسلام إلى الغاية ، وانتظام خلاله الكريمة بشروط الكفاية والكفالة ، وإضاءته في قضاء الفضائل بالحسن والحسنى من الحلية والحالة ، وتوفّره على الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ بحرّاً وبرّاً بتجهيز أساطيله وكتائبه ، واعتماد كل ما يدلّ منه على مزيد الشكر في استمداد مزيد مواهبه ، وقيامه بتوفيق الله المعبود له ، وكشفه بالرأى الثاقب مهمات الخطوب المشككة ، وبسط اليد والقول في العارفة والعاطفة للأولياء بالنبل واللين ، وانتضاء سيفه وسوطه في السطو على الأعداء لاقضاء دين الدين ، حتى تعلو كلمة الإسلام وثبتت ، وحتى تنبت عروق الكفر من أرض الله وثبتت ، وحتى تكتب المذلة على العداة فتكسبت ، وحتى تجمع القلوب والألسنة على محبته (٦٧ ب) وشكره ، وتتفق الكفاة على الائتمار لطاعة أمره ، ونحن نسأل الله تعالى أن يوفقه ويسدّده ، وأن يعضّدنا به ويعضده ، ويؤيدنا بحسن تدبيره ويؤيده ، والمستقر له من إقطاعه ما أثبت في الديوان ذكره ، ويؤيّن في هذا المنشور قدره ، وهو ماسبق ذكره ، ظنّول نعمة الله تعالى بالشكر الذي يرتبطها ، وبسط اليد الذي ينشر عليه ويبسطها ، ونشاط الهمة الذي يطلقها من عقال التوقّف وينشطها ، مستمسكا

من التقوى بأوثق عروة ، عاقداً بها من حب بذل الجباء أصدق حبة ،
فأترأ من النصر بالنجح في مغازيه ومساعيه بأوفق خطوة ، سامياً من العز
والجلالة والمهابة على أسمى ذروة ، مؤيداً من الله بالتسديد في صرف كل
حطب وتصريف كل خطوة . . .

ثم توجهنا إلى مصر بالعسكر المصرى وذلك في شعبان بمقتضى المنشور
فسار فيها أحسن^(١) سيرة محمودة ، وأقام فيها منار العدل بأتم سياسة .

* * *

ذكر ولاية الملك العادل سيف الدين حطب قلعتها وأعمالها

وكتب له أيضاً منشور وذلك في شعبان من السنة ونسخته .
« الحمد لله ذى السلطان القاهر ، والإحسان الظاهر ، والامتنان الوافر ،
والبرهان الباهر ، نحمده على إنعامه المتضاعف المتظاهر ، وإفضاله المتوافد
المتوافر ، حمداً يؤذن بالميزيد لا شاكراً ، ونسأله أن يصلى على سيدنا نبيه محمد المصطفى
ذى الشرع الطاهر^(٢) ، والنور الزاهر ، وآله الأكارم الأكابر ، ذوى المفاخر
والمآثر ، ونسلم تسليماً كثيراً . أما بعد فإن الله عندنا نعماً إن نعدها لانحصائها ،
ومنتأ قد جمع الله لنا بشمولها الدائم شمل أعمها وأخصها^(٣) ... ومواهب واضحة
المذاهب فى التواصل والتناصر ، ومناخ متظاهرة العوادي والروائح (١٦٨)
فى التوافد والتوافر ، وأيادى ملأت الأيدى والآمال نجاة ونجاحاً ،
وعوارف عمّرت منا ومن أوليائنا الصدور والقلوب انشراحاً وارتياحاً ،
واقدر أماناً من الملك ما قامت لنا بالحق حجته ، ووضحت فى نهج السعادة
بنجح الإرادة بحجته ، وأيدناً عليه بالنصر الماضى النصل ، والعز الجامع

(١) فى الأصل « حسن » .

(٢) فى الأصل « الظاهر » .

(٣) فراغ فى المخطوطة يقدر كلمة واحد .

الشمْل: حتى أذل لنا رقاب الأعداء ، ومهد لنا وبنا أسباب الولاء، وممَّلَكنا قياد العباد ، وكفَّ عنا وبنا عنان ذوى العناد ، وجعل سيوفنا وأقلامنا الأقاليم أقاليد ، وفرق جموع الكفر بياسنا أشتاتاً عناديد، بالفتوح الأبكّار بصوارمنا الذكور افتناضها واقتضاؤها ، والحتوف نحو الكفار بعزائمنا المصيبة المضارب في ضرب الهام وطعن النحور انتهاضها وانتهاؤها ، وثغور الإسلام عن ثنايا الثناء علينا ضاحكة الثغور ، وأوامرنا في إعلاء أعلام الدين منتظمة الأمور ، والجهاد من جميع جهات ممالكنا برا وبحراً متسق الجوع ، والتوحيد لقمع أهل التثليث ثابت الأصول نامى الفروع ، والحمد لله عوداً بعد بداء على ما والاه من نعمه وأولاه ، وأعادده من منحه بعدما أبداه .

«ربِّ»^(١) أو زعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً تَرْضاهُ . ومن جملة نعم الله سبحانه وأجلها وقوعاً ، وأجلها في الجلالة طلوغاً ، وأجدرها منا بالإخلاص والحمد ، وأشرفها لنا في مطالع السعد ، وأوجبها لفرض الشكر . وأحرها بدوام الإشاعة والنشر . أنه سبحانه وتعالى شد أزرنّا بأخيّنّا المُنك العادل سيف الدين ناصر الإسلام أبي بكر ، أدام الله علوه ورفعته . وسموه ونعمته ، وبسط يده وأيدَّ بسطته ، ذى الباع الطويل ، والطول الجزيل ، والصدر الرحيب . والرأى الراجح المصيب ، والجد المنيّف المنير . والأناة والحزم والثبات (٦٧ ب) والقبول ؛ الذى وفر له فى القلوب مواد المودات ؛ والجود الذى ينهل جوده بإسعاف العافين من سماء السماح ؛ والعاطفة التى تلحق الراجين جناح النجاح ؛ والعارفة الفارعة ، والمعرفة الصادقة ، والهمة الصادقة ، والمهابة الرائعة الرائقة ، والسياسة الجامعة المانعة ، والبسالة التى زلزل الكفر بأسسها ، وتقوضت بها قواعد البدعة وأساسها ، والتدبير الموافق فى حفظ الممالك ونظم عقودها ، والنظر الصائب الصادق فى ترتيب المصالح وصون حقوقها

وحدودها ، والعدل الذى أوضح سنته ، وأقام بين الرعية فروضه وسننه ،
والسيرة التى تحلى التورايخ بأيا من أيامها ، وتردُّ بها الدولة مراعى مرامها ،
والاعتقاد الذى أنارت آفاقه من التوفيق بأنوار الخلوص ، وتوفر حظه من
عموم تأييد الله عز وجل إياه على الخصوص ، فالملك يابالته محكم القواعد ،
مبرم المعاهد ، مستهل العهاد أهل المعاهد ، والدولة يادالته شديدة السواعد ، سديدة
المساعد ، صافية الموارد ، صادقة المواعد ، والدين بنصرته سامى القدر ، على الأمر ،
نامى النشر ، والإسلام منه بنصره زاهر ، والكفر من بأسه بقامعه واه ،
والقدر بقضاء الله تعالى على موافقة أمره أمرٌ ناه ، والشرع بمحافظته على
أحكامه وملاحظته أسباب نظامه مفاخر مُباه ، فهو الشقيق الشفيق الذى
لإيثارنا يؤثر ، ولرضانا يقصد وعلى مرادنا يجرى ، وهو كما قال الله تعالى
عن موسى عليه السلام (واجعل^(١) لى وزيراً من أهلى ، هرُونَ أَخى ،
أشدُّ به أزرى ، وأشركه فى أمرى) والحمد لله الذى عضدنا بمساعدته ،
وأسعدنا بمعاهدته ، وأظهرنا بنجدته ، وأنجدنا بمظاهرته ، وأظفرنا بموافقته ،
ووقفنا لمظافرته .

ولما أنعم الله تعالى علينا فى هذه (١٦٩) السنة بالفتوح المستفاضة
والممالك المستضافه ، وحكم لنا فى توسيع دائرة المملكة بالزيادة^(٢) والأناقة .
وفتح لنا البلاد ، وملك من كل ما رمناه القياد ، جربنا على أحسن الشيم ،
فى إحياء سنة الكرم ، فما فتحنا معقلاً إلا ويدنا له مالكة واهبه ،
والخازم من يكون ذا هبةٍ للدنيا فإنها ذاهبه ، وقد جعلنا لأخيها الملك
العاذل من الممالك التى تملكناها ، والبلاد التى فتحناها ، والمعاقل التى استضافناها ،
أوفى نصيب ، وأصبح النجاح منا لداعى رجائه أسرع مجيب ، ورأيناه أحق
من كل بعيد وقريب ، وقلدناه أمور البلاد والمعاقل والغور ، وفوضنا
إليه فيها جميع الأمور ، فبيده الحل والعقد ، والبسط والقبض ، وإليه

(١) قرآن كريم ، سورة طه : ٢٠ : ٢٩ - ٣٢ .

(٢) فى الأصل « بالزيادة على » .

الولاية والعزل والإبرام والنقض ، وله القول الثابت والأمر النافذ ، وإلى فضله يرجع العابد ، وبعده يلوذ العائد ، ونحن نرغب الله عز وجل في أن يوفقه ويؤيده ويسدده ، وسبيل الأمراء والولاة والنواب والأعيان والرعية والأصحاب الانقياد لأمره المطاع ، ومقابلة مراسمه بالامتثال والاتباع ، والرجوع إلى بابه ، والجرى على حكم نوابه ، والنهوض إلى الغزوات في خدمة ركابه ، والوفود في حالة الضراء إلى المربع المريع والمنع المنيع من جنابه ، فإنه فسيح الأولياء بالآلاء ، والأعداء بالأعداء ، ولديه كشف الغما بالنعماء ، وفي مهاب المحاب منه بضع أرج الرجاء ، ومن شيمته الاقتداء بسنتنا في بسط العدل والإحسان ، وقبض أيدي الظلم والعدوان ، وإسداء المعروف ، وإيعاد^(١) الملهوف ، وإعلاء معالم المعالي ، وتكثير حسنات أيامه لتكفير سيئات الليالي ، والمجاهدة في سبيل الله رابط الجأش لتأليف الإيلاف من جيوش (٦٩ب) الرباط ، وعمارة البلاد بحسن سيرته التي لم تزل مستقيمة على الحدود في الإسقاط ، ومشايعة الشريعة المطهرة في جميع أحواله أخذاً بالاحتياط ، مؤيداً بالنصر من الله والتأييد والتمكين ، حتى تنسى في تلك الثغور غزوات سيف الدولة غزوات سيف الدين . ويحقق لجميع المسلمين قمع^(٢) المرتدين^(٣) ، ويعلى كلمة الإسلام بما يوليه من النصر الظاهر والفتح المبين . وكتب له في آخر المنشور تفصيل ما أنعم عليه به من حلب ومعاقبها . ثم توجه إلى حلب في شهر رمضان من السنة .

...

ذكر الرحيل من الكرك الى دمشق

ولما رأى السلطان أن أمر الكرك يطول ، وأن شهر الصيام قد أظله ، وأن العسكر قد تعب وليس معه من آلات [الحرب] ما يكفي انصرف

(١) في الاصل « واعداء » .

(٢) كلمة ضائعة في الاصل ، وقد أضيف ما بين الحاصرتين اجتهدا ليستقيم المعنى .

بعسكره راجعاً إلى دمشق فدخلها بعد أيام ، واستبشر الناس بقدومه .

* * *

ذكر وصول صدر الدين شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير من
الديوان العزيز ووصول محيي الدين [أبو حامد محمد بن القاضي
كمال الدين] بن الشهر زورى معهما رسولا عن صاحب الموصل
وذلك في ذى القعدة :

ذكر السبب في ذلك :

ولما عرف صاحب الموصل ما تسنى للسلطان من فتح آمد وحلب وغير
ذلك من البلاد خاف على نفسه وبلاده ومال إلى الاستعطاف ، فاستدعى
من الديوان العزيز إرسال شيخ الشيوخ للشفاعة إلى السلطان ، فوصل ومعه
بشير [الخادم] ، ونذب صاحب الموصل معها القاضي محي الدين أبا حامد
محمد بن محمد الشهرزورى ، وكان قدومهم إلى السلطان في دمشق ، ولما علم
بقدومهم استقبلهم بالإكرام والإجلال والاحترام ، فلما قرب بعضهم من
بعض نزل ونزلوا له ثم ركبوا جميعاً ، فأنزل شيخ الشيوخ بالرباط على
المنيع ، وأنزل القاضي محي (١٧٠) الدين في جوسق بستان الخللخال ، ونزل
شهاب الدين بشير جوسق صاحب بصرى على الميدان .

ثم أحضر السلطان شيخ الشيوخ وجرى بينه وبينه أحاديث شتى في معنى
صاحب الموصل واستخلاف السلطان على موصله ومراده ، فجرى من ابن
الشهرزورى كلام فيه اشتطاط^(١) واشترط أشياء ، وكان السلطان فاتر
العزم في العود إلى الموصل فهاجه على المسير إليها ، ثم أمر لهم بالإكرام
والتشريفات والنفقات والعطايا السنية ، ورحلوا فنزلوا على القصير فراجع

(١) اورد ابن واصل : مفرج الكروب ١٥٦/٢ صورة لبعض ما قاله الشهرزورى من

كلام احنق صلاح الدين .

نفسه الشريفة وقال : « قد استحيينا من مسير شيخ الشيوخ إلينا مرة بعد أخرى ، ولا بد من رضا المواقف الشريفة المقدسة ، ، فركب في خواص عسكره وأتى القصير ، فنزل في خيمة صدر الدين [شيخ الشيوخ] ثم كشف له عن حاله وما جاء به ، وأنه قد أتى ليجوز مرضى الديوان العزيز ويكتب نسخة اليمين في الصلح ، ففرح بذلك شيخ الشيوخ فرحا عظيما ، وأرسل إلى محي الدين [بن الشهرزورى] يعلمه بالأمر ووصول السلطان لإصلاح ذات البين بجواب الرسالة الإمامية .

فلما رأى محي الدين بن الشهرزورى تواضع السلطان ترفع وقال : « أنا بعد ما جرى من الحال لا رغبة لى فى الحضور ، ولعلمكم اعتقدتم أنه ليس لنا مظاهر ولا مؤازر ، وأشار إلى سلطان العجم وبهلوان .

فلما سمع السلطان ذلك تبسّم وقام بعد وداع صدر الدين ورجع إلى دمشق ، فكان بها بقية ذى القعدة وذى الحجة ، وكان قد عزم على الجهاد والمسير إلى حصار الكرك عند دخول سنة ثمانين .

ووصلنا كتاب السلطان إلى مصر بنحريض والذى الملك المظفر وحثه على إنفاذ العساكر المصرية للجهاد . وذلك فى العشر الآخر من ذى الحجة من السنة المذكورة .

. . .

فصل من (٧١-) مصدره :

« قد تقدمت المكتابة إلى مجلس الملك المظفر لازالت أيامه بالملك والظفر منعوتة ، وصلاة صلاته بالحمد والإخلاص موقوتة ، وولاية ولائه مرموقة ، وعداة آلائه محمقة ، ومنايا مناوئيه مكتوبة ، وشناة شانه مكبوتة ، وعرفناه ما شمل من نعم الله وفاض ، واستنار من لآلاء آلائه واستفاض ، وأن الله أغاث بغيوث رحمته وبغيوث نعمته حتى سالت أوديتها ، وسفكت أدماء المحول بسيوف البوارق فلا يقال قودها أوديتها ، فدم الحرب مطلول ، وسيف البارق مسلول ، .

ومنها :

« وقد كاتبتنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم ، وأن يحزموا
بجمع العساكر أو أمرهم لأمرائهم ، فامنهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء ،
ويسارع إلى إجابة الدعاء ، ويعشق ولا عشق لقاء الألفة لقاء الأعداء ،
وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء ، وإذا رأوا آذار مقبلاً أقبلوا ،
فإنهم منذ شاهدوا ضرع العارض حافلاً احتفلوا ، وأجمعوا أمرهم قبل
الاجتماع بأمرنا ففعلوا بما فعلوا ، والله عز وجل يمد الإسلام بفتوح
تفوح أرجاؤها بأريج العز ، ويسمى للمجاهد في سبيله ما وعدهم من درج
الفوز ، وقد عزمنا - مع خروج شباط - [على] المسير إلى حلب ، لأن
هناك العساكر يقرب اجتماعها ، والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات
الصائبة يتداني استماعها ، والهيبة في النفوس تفخم ، والصيت في الآفاق
يعظم . »

* * *

ذكر وقعة قراقوش الكلي المظفرى في هذه السنة (١)

وفيها سار شرف الدين من جبل نفوسة إلى قابس في يومين وليلتين
وذلك مسيرة ثمانية أيام ، واعتقد أنه بقابض قابس أو يهجمها ، فلما
وصلها لم يقدر على ذلك ، وأخذ (١٧١) القصد الذي لها على الساحل ،
وفيه يبيع الروم ويشتررون ، وأخذ منه أشياء كثيرة من أمتعة وفضة وغلة
وغير ذلك ، وأقام عليها على قرية من قراها سبعة أيام ، ووصله في اليوم
الثامن الثقل الذي له ، ورحل من القصر المذكور ، ونزل على قلعة حسن
فأقام عليها شهراً يدبر الحيلة في أخذها إلى أن كان في بعض الليالي ساهراً ،

(١) خلى ابن الأثير من أحداث هذه الواقعة .

فأحضر خواصه ومن يشير عليه وقال : « قد رأيت أن أعمل لهذه القلعة الليلة عملاً أرجو أن آخذها بمشيئة الله تعالى » ، فقالوا : « وما ذلك العمل الذى يكون ؟ » ، فقال : « إن هؤلاء ينزلون فى كل يوم يقاتلون أسفل الوطاء ، وأريد أن أكمين الليلة ثلاثمائة فارس من خلف هذا المنشار^(١) وأكون فى الصبح راجعاً نحو القتال ، ويكون بينى وبين السكين إشارة من دق كوس أو ضرب بوق ، فإذا رجعت ونزل القوم يقاتلون استجروناهم وانكسروا قدامهم فيطمعوا فينا ، فإذا بعدوا عن الموضع وهم لا يشعرون أن خلفهم كميناً^(٢) ضربنا حينئذ البوقات دفعة واحدة ، فيركض أصحابنا من موضعهم ، فلا يكون لهم عمل إلا أنهم إذا وصلوا إلى رأس المنشار الذى يتصل بعقبة المطلع ترجلوا عن خيلهم وطلعوا إلى القلعة لا يبقى فيها من يقاتلهم ، وإذا رأى المقاتلة ذلك انخذلوا ، فإذا رجعوا منهزمين ركبنا أكتافهم ، وقاتلهم أولئك الذين صعدوا الطريق ومنعواهم من الطلوع قتلناهم عن آخرهم أو أكثرهم وملكنا القلعة » ، ثم قال : « يروح فلان وفلان ، حتى عدّ ثلاثمائة وأمرهم أن يكمنوا بحيث قال .

فلما أصبح ركب وزحف فكان ما اعتقده من نزول أهل القلعة وقتلهم فى الوطاء ، واستجروهم وانكسر لهم ، فلما أبعدوا ضرب الكوسات والبوقات ، فأقبل السكين من موضعه فسبق إلى الطريق إلى القلعة ، وأقبل المقاتلون فوجدوا الطريق قد ملكت عليهم فانخذلوا ووقع فيهم السيف (٧١ ب) ، فلك أولئك القلعة وما احتاجوا إلى مساعد ، فكان عدة من قتل فى ذلك اليوم ألفين وثمان [مائة]^(٣) رجل من البربر ، وترك الباقي واحتوى على القلعة وما فيها ، وغنم منها أموالاً عظيمة جمه فرّقها على أصحابه ، ووجد فيها

(١) المنشار حصن قريب من الفرات وفيل جبل ، مرصد الاطلاع ١٢٢٠/٣ .

(٢) فى الاصل « كمين » .

(٣) ما بين الحاصرتين ضائع فى الاصل .

من الغلات شيئاً عظيماً ، وكان عندهم بنفوسة غلاء ، فأعطى الأجناد منها ما أقام بهم بقية سنتهم ، ورحل عنها ونزل على قلعة يقال لها « أم أدوت » ، وهي لا يطمع في قتالها ، فأقام عليها أياماً وراسل أهلها وقال لهم : « أعطيك الأمان على أنفسكم وأموالكم وأعطيكم من الضياع ما تريدون » ، فأبوا عليه ولم يعيدوا عليه جواباً ، فأقام أياماً لا يكلمهم ولا يرأسلهم ، فأرسلوا إليه : « إنا نفعل ما أمرتنا به ، وأعطينا الأمان على أنفسنا وأموالنا ، وأعطينا ما نريده من الضياع كما بذلت لنا » ، فقال : « قد كان ذلك » ، وأما الآن فما عندى لكم أمان إلا على أنفسكم وأموالكم دون عطاء ضياع » ، فأمسكوا عنه أياماً ما أجابوه ، ثم طلبوا منه الأمان على الأنفس والأموال لا غير ^(١) ، ثم لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا إليه بأجمعهم بكرة يوم من غير أمان ولا كلام ، فعجب من عقولهم وقال : « كيف نزلتم ؟ » ، فقالوا : « آييت أن تعطينا الأمان إلا على أنفسنا ، وما نحن كفار نخاف الأسر وقد نزلنا » ، فقال : « ما منعكم ^(٢) أن تقبلوا ما أعطيتكم إياه أولاً وثانياً ؟ » ، فقالوا : « سعادتك » ، فإنا تجلدنا في الأول ورجونا رحيلك ، وما كان عندنا ماء يكفيننا ، فلما امتنعنا وأقننا أياماً وما رحلت رجونا أنك تعطينا ما تعطينا في الأول ، فلما امتنعت منه طمعنا في الرحيل أيضاً مثل الدفعة الأولى ، فلما لم ترحل طلبنا الأمان الثاني فأبيت ، فلم يبق إلا النزول عند فراغ الماء » ، فأخذ القلعة وما فيها ، وما كان فيها حاصل مثل قلعة حسن ، وجعل بها نائباً ، ولم تزل في يده إلى أن أخذها من نائبه المايرقي (١٧٢) ، وأخذها المايرقي بالعطش أيضاً ، إلا أن المايرقي ما رتب فيها أحداً بل تركها لأهلها الأولين .

رجعنا إلى الحديث :

ثم رحل شرف الدين [قراقوش] عنها وعاد إلى نفوسة ، وهذه

(١) بعدها في الاصل عبارة « فأبوا » وما أجابوه أياماً « ووجودها يجمل السياق

مضطرباً .

(٢) في الاصل « أمنعكم » .

القلعة بالقرب من جهة مطماطة ومن نفزاوة^(١) ، فأما الحمامة فإن الذى يكون نازلاً عليها يشاهد بساكنى الحمامة ، وأما نفزاوة فيبينها وبين القلعة جبل يسمى اللوح .

ونفزاوة بين بلاد كثيرة يكون فيها ما يزيد على أربع عشرة مدينة ، ولها نحو من مائتى ضيعة ، وكلها نخيل وزروع على العيون ، وكان فيها مدينة تسمى « طرة » ، وإلى جانبها مدينة تسمى « يامن » ولها مقدم يقال له « سيد الناس » وله أخ يقال له المنصور ، وكان بينه وبين أهل بشتى^(٢) (مدينة عظيمة من مدائن نفزاوة) عداوة .

ولما سمع بقوة شرف الدين وتدويحه البلاد التى إلى جانبه أراد أن يجعل عنده بدأً ويبلغ غرضه من أهل بشتى بيد شرف الدين فكاتبه وراسله وحلف أن يسلم إليه طرة وبلن وما لهما من ضياع ويعينه على ملك ما فى نفزاوة .

فلما تحقق شرف الدين منه ذلك علم أنه يملك ذلك إذا دخل سيد الناس فى طاعته ، وكان الحديث بينهما فى أيام الربيع ، وكان شرف الدين ذلك الوقت نازلاً بالساحل : ساحل طرابلس ، وكان قد وصل إليه من الديار المصرية جماعة فيهم شجاع الدين بن شكل ، وقد فرح بهم وزاد عسكره فصار نحواً من ثمانى مائة فارس من الأتراك والأكراد ، فأعطى ابن شكل شجاع الدين قصوراً ما بين كندة والسويقة يكون فيه أربعون ضيعةً جعل له خاصاً ، ولما يسكه معه ثمانية ، ودخلُ الموضع يكون قريباً من أربعين ألف

(١) بكسر النون وسكون الفاء مدينة هامة من أعمال افريقية ، بينها وبين قفصة

مرحلتان ، راجع ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ١٣٨٢/٣ .

(٢) ضبطها مراصد الاطلاع ١٩٩/١ بفتح الباء وسكون الشين وفتح الناء والراء واكتفى

فى التعريف بها بانها مدينة بافريقية .

دينار مأمونية ، وقال : « إذا فتح الله البلاد وملكتها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » ؛ هذا بعد أن خلع عليه وأعطاه خمسين جملا وعشرة من الخيل وثمانية ألف دينار .

وسار شجاع الدين بن (٧٣ ب) شكل معه فاستغل الموضع الذى أعطاه وزاد فى استغلاله بحرا به ومصادرة أهله ومطالبته بما لا يقدرون عليه ، فرفع ذلك إلى شرف الدين فقال : « هذا الموضع قد أعطيه [سته له] ^(١) فلا أنكده عليه ، إن شاء أن يعمره وإن شاء أن يخرّبه » .

ولم يزل شرف الدين فى تلك الخطة إلى آخر السنة المذكورة .

* * *

سنة ثمانين وخمس مائة

فيها تقدم الخليفة إلى داود صاحب الديوان أن يخرج إلى الكوفة ويعدّ نخلها ويحقق عدده ويستوفى الخراج من أهلها ويعتبر معاملاتها ، فتوجه [داود] وأقام بها مدة يسيرة . فخرج أهلها من بين يديه ، وجاء جماعة منهم إلى بغداد يستغيثون من يده ويلازمون الخطيب كل يوم جمعة ويبالغون فى الاستغاثة ، وكثر ذلك منهم . فبرز الأمر بإحضار صاحب الديوان ، وكان قد نقل إلى أستاذ الدار ونائب الوزارة ابن البخارى أن شيخ الشيوخ يعرض على الخليفة مكتوبات سرّا ، فنسب ذلك إليه فأخذ كل منهما يقبح فعله .

وأما صاحب الديوان فإنه 'حمّل' إلى ديوان الزمام لجلس فى الخزانة

(١) ما بين الحاصرتين ضائع من الاصل .